كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : Iraq between the Mongol and Safavid occupations

العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي

خطة المغول العامة-:

كان غزو المغول للعراق جزءاً من حركة واسعة تستهدف اقامة إمبراطورية مغولية نجحت فعلاً تحت قيادة(جنكيز خان ١٢٢٧ – ١١٥٤) م باحتلال جزء كبير من الصين واواسط اسيا وايران وشرقي اوربا، وكان تقدم(هولاكو)الى العراق متمماً لغزوهم للعالم الاسلامي الشرقي الذي بدأه(جنكيز خان) في ٦١٦ هـ ١٢١٩ /م، وقد ساعدهم على تحقيق هدفهم الانحلال والانقسام الذي يسود البلاد.

بدأ التهديد المغولي لتخوم العراق سنة ٦١٨ هـ ١٢٢١ /م، وارتبطت نتائجه بمصير الاقاليم المحيطة به من الشرق والشمال ولاسيما دولة خوارزم التي كانت بمثابة السد الذي يدرأ عنه الأخطار القادمة من الشرق، لأن الخليفة العباسي لم يكن بإمكاناته العسكرية والسياسية المحدودة يستطيع مواجهة الإمبراطورية المغولية التي

ضمت، وقت سقوط بغداد في شباط ١٢٥٨ م اغلب بلاد الصين وتركستان ومقاطعات من الهند واجزاء كبيرة من روسيا وايران واسيا الصغرى وكانت تملك مصادر هائلة من الرجال والسلام والمال.

وتمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية وقتل زعيمها جلال الدين منكبرتي في ٦٣٨ هـ / ١٢٣٠م، واتسمت غاراتهم بالسرعة والبطش والوحشية لإشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان ومارست القوات المغولية في هجماتها ابشع اساليب الفتك والتقتيل، ولم يظهر الخلفاء العباسيون المتأخرون اهتماماً جدياً

بالخطر الداهم المحدق بادئ الامر، ولم يدركوا عميقاً طبيعة ذلك الخطر الذي كان يتهدد بلادهم، ولذلك لم يضعوا سياسة واضحة لمعالجته او درئه او الاحتياط له، وكل ما فعلوه هو جمع قوات بصورة مرتجلة وارسالها الى مواطن الخطر القريبة، ثم تسريح اكثر الجنود بعد تراجع العدو والانتظار الى حين ظهور الخطر من جديد، في

وقت كان المغول يشكلون اعظم خطر يهدد كيان الدولة والامة، وقد اخذت مظاهر الانحلال السياسي تتزايد بعد ان تولى(المستعصم بالله)الخلافة سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م وقد تبوأها في احلك ظرف واجهته الدولة العباسية، ولم يكن لهذا الخليفة شخصية كفوءة تؤهله لحكم البلاد وزعامة العالم الاسلامي، فقد كان لين العريكة مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير عارف بمشاكل عصره، غير مهيب في النفوس، وفي عهده تفرق الجند بعد ان قطعت ارزاقهم فلحق بعضهم بالشام واضطر بعضهم الى التسول.

احتلال العراق ومقاومة اهله :

وفي عام ٦٥١ هـ ١٢٥٣ /م ارسل الامبراطور(مانغوخان هولاكو)لفتح اسيا الغربية، فأخذت جيوشه تتحرك من مختلف المواقع التي كانت ت ا ربط فيها وفي خلال تقدمه البطيء دمر قلاع الإسماعيلية واسر زعيمها(خورشاه)في ٦٥٤ هـ ١٢٥٦ /م ثم وصل همدان في السنة التالية، ومن هناك ارسل الى الخليفة يتهدده ويتوعده مطالباً اياه بالتسليم ورفض الخليفة ذلك الطلب.

وفي اوائل محرم ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ /م اشتبكت القوات العباسية يقودها(الدويدار الصغير مجاهد الدين ايبك)، بالقوات المغولية عند الدجيل(بين بغداد وسامراء) وانتهت المعركة بتحطيم الجيش العباسي، وتقدم(هولاكو)من خانقين بالجيش المغولي الرئيسي المؤلف من ٢٠٠,٠٠٠ محارب الى بغداد، فنزل الجانب الشرقي منها في اواسط محرم، واطبقت قواته عليها من كل الجهات وبدأ القتال في اواخر محرم، ونجح المغول في اختراق السور من بعض المواضع.

وفشلت محاولات الخليفة في التوصل الى حل سلمي، فاضطر الى الخروج مع اسرته لمقابلة هولاكو، فحجزوا ثم قتلوا، ودخل الغزاة بغداد في ٥ صفر ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ /م، وفتكوا باهلها سبعة ايام او تزيد ولم يفرق فيها بين الرجال والنساء والاطفال حتى لم يبق من اهل البلد ومن التجأ اليهم من اهل السود الا القليل، والقيت في النار معظم البلد،" واستولى الخراب على المدينة وكانت القتلى في الدروب والاسواق كالتلول، ووقعت الامطار عليهم ووطأتهم الخيول فاستحالت صورهم وصاروا مثلة بتشوه

الخلقة"...، وقدر عدد من قتل من اهل بغداد بما يزيد على ٨٠٠,٠٠٠ نفس، عدا من القي من الاطفال في الوحل ومن هلك في القنى والابار والسراديب فمات جوعاً وخوفاً، وربما كان في ذلك الرقم شيء من المبالغة الا انه يدل على عمليات الاستباحة، امر هولاكو بإصلاح بعض ما خرب وترميم الاسواق ورفع جثث القتلى من الناس والحيوان، ورحل هولاكو عن المدينة بعد ان فوض امرها الى جماعة معينة لإعادة تنظيمها، وابقى على التقسيمات الادارية كما كانت في العصر العباسي الاخير، ووضع على رأس الادارة المسؤولين في العهد السابق للاستفادة منهم ريثما تتكون مجموعة من الاداريين المغول، ومن هؤلاء(مؤيد الدين بن العلقمي)وزيراً،(وفخر الدين الدامغاني)صاحب الديوان والقضاء، و(نجم الدين بن الدرنوس)، وعين شحنة للمدينة على بهادر، وابقى فرقة من الجيش المغولي مؤلفة من ثلاثة الاف محارب حامية للمدينة، وارسلت قوات مغولية الى انحاء العراق الاخرى، فأخضعت مدنه وقراه، ورفضت ربل وواسط الخضوع للمحتل الغاشم، وابدت من المقاومة ما دفع بالغزاة الى تشديد حصارهم عليهما فكانت خسائر ابنائها نحو ٤٠,٠٠٠ قتيل وثارت الموصل في ٦٥٩هـ ١٢٦٠ /م وشجعها الانتصار الكبير الذي حققه العرب في معركة عين جالوت تلك السنة، واستطاعت بقيادة الملك(الصالح بن اسماعيل)ان تقاوم القوات المغولية مدة تزيد على السنة عجز فيها الغزاة عن اختراقها، ولكن فقدان المدينة للمؤن اجبر امريها على طلب الصلح فواق القائد المغولي (سنداغو)، ولكن لما خرج اليه الامير وولده قتل الولد وارسل الامير واخاه الطفل ولقبه الكامل مع بعض اصحابهما الى هولاكو، فأمر الطاغية بسلخ وجه الصالح بن اسماعيل وهو حي ثم قتل اخاه مع من رافقهم من الاتباع، ودخل الجيش المغولي الموصل في رمضان ٦٦٠ هـ ١٢٦١ /م فقتل غالب اهلها واخذ منهم اسرى حتى خوت المدينة، وبعد انتهاء ما استباحتها ورحيل القوات المغولية عاد اليها من كل مختبأ من اهلها في الجبال والمغارات.

وهكذا خضعت اغلب مناطق العراق، وقتل عدد كبير من سكانه وخربت اجزاء كبيرة منه، وقتل معظم افراد الاسرة العباسية ما عدا انفار قلائل استطاعوا الفرار والنجاة ومنهم(ابو القاسم احمد بن الظاهر

بأمر الله)الذي اعلمه سلطان مصر(الظاهر بيبرس)سنة ٦٥٩ هـ ١٢٦٠ /م خليفة بأسم (المستنصر بالله)، ولم تكن له من السلطة الا الاسم.

إدارة الاحتلال :

تحول العراق بعد هذه الكارثة الى ولاية من ولايات الامبراطورية الايلخانية المترامية الأطراف التي شملت في اوج قوتها البلاد الواقعة ما بين نهر جيحون والمحيط الهندي ومن السند الى الفرات مع جزء من اسيا الصغرى وبعض القوقاز، قاعدتها اذربيجان وتابعة من الناحية الشكلية للإمبراطورية المغولية، بعدما كانت بغداد قاعدة الخلاقة وعاصمة العالم الاسلامي مدة تربو على خمسة قرون اصبحت تبريز ثم سلطانية قاعدتي الايلخانيين الرئيسيتين، وكان طبيعياً ان تتوجه عناية حكام هذه الامبراطورية الى ايران دون العراق.

وقسم العراق على ولايات ثلاث:

١ – العراق ، وهم القسم الاهم، ويمتد ما بين الزاب الاعلى الى عبادان طولاً، ومن– القادسية الى حلوان عرضاً.

٢– الجزيرة الفراتية، وفيها الموصل وسنجار والعمادية واربيل .

٣ – بلاد الجبل، وفيها مدينة شهرزور .

وكان العراق احدى الولايات الايلخانية المهمة التي كانت تسمى ممالك، ويدعى حاكمها احياناً ملوكاً، وكانت عاصمته بغداد وترد في كتابة المعاصرين باسم مدينة السلام، وقد زارها الامراء الايلخانيين عدة مرات.

والغيت في هذا العهد اكثر الدواوين وبقي ديوان الوزير وديوان الزمام ثم ادمج الديوانان في ديوان واحد صار رئيسه صاحب الديون وهو الحاكم الاعلى في العراق ، وهو الذين يعين كبار الموظفين وغيرهم، والى جانب صاحب الديوان هناك كاتب السلة، وهو مسؤول عن كتاب الولاية وبيده اسرارها، ويطلق عليه احياناً اسم(كاتب العراق) ، وبقي منصب قاضي القضاة وهو الذي يعين القضاة في مختلف

انحاء البلاد ويتولى امر مراقبتهم ونقلهم وعزلهم، وبقيت الحسبة وصاحبها المحتسب ومهمته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الاسواق كما كانت هناك وظيفتان اداريتان هما :الصدر والناظر، والصدر يطلق على رئيس الوحدة الادارية ويشرف على ادارة القوات المسلحة في تلك الوحدة وحماية امنها، اما الناظر فهو موظف من اولى مهماته النظر في الشؤون المالية.

واهم الوظائف العسكرية :الشحنة ونائب الشركة، فأما الشحنة فكان كالقائد العسكري الاعلى مهمته المحافظة على الامن والقضاء على الثورات وحركات التمرد ومراقبة صاحب الديوان لضمان ولائه للدولة، ولهذا ظل امر هذه الوظيفة بأيدي المغول عامة الى اخر العهد الايلخاني، اما نائب الشرطة فأنه مسؤول عن المحافظة على الامن في بغداد.

وكانت ادارة الامبراطورية الايلخانية لا مركزية، ويتمتع حاكم العراق بدرجة من الاستقلال في ادارة شؤونه مقابل تقديم المال اللازم لخزينة الامبراطور وارسال القوات العسكرية المناسبة له في حالات الحرب، ولكن هذه اللامركزية لم تكن كاملة لأن الحاكم الايلخان كان يزور العراق ويقضي الشتاء بين ربوعه في بعض الاحيان، كما كان يرسل مشرفاً يستقصي شؤونه عن كثب ويرفع اليه تقريراً عنه.

وكانت سلطة الايلخان غير محدودة، وله حق قتل من يريد ولم تكن للشعب حقوق بل كانت عليهم واجبات اهمها الطاعة ودفع الضرائب المتنوعة، ومن اهم سمات حكومة العراق في هذا العهد عدم الاستقرار والفساد.

الا ان ذلك العهد لم يخل من اعمال عمرانية نادرة ولاسيما في عهد الايلخان السابع(غازان محمود- ١٣٠٣ ١٢٩٥م) ، الذي اصبح الاسلام في عهده دين الدولة الرسمي، الا ان تلك الاصلاحات كانت وقتية وذات اثر محدود فاستمر الامن مضطرباً خارج المدن، واستمرت البلاد منهوكة القوى مهيضة الجناح لما اصابها من الخراب، ومن المعلوم ان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التي يقوم ازدهارها على نظام الري، ولكن السلاطين الايلخانيين وحكامهم في العراق لم يهتموا بتطهير الانهار والقنوات، ولا بفتح قنوات جديدة، ومن نتائج هذا الاهمال ان الفيضانات سببت دماراً

كبيراً ولعل من اشهرها غرق بغداد في السنوات ٦٧٦ و ٦٨٣و ٧٢٥ ، وغرق الحلة والكوفة في ٦٨٥، ومن الطبيعي ان ظروف البلاد الاقتصادية والمعاشية المنخفضة والتخلف وقلة عدد المستشفيات وعدم العناية بها، ادى الى ان يتعرض العراق لهجمات شديدة من الامراض الوبائية والمتوطنة.

ومع قلة الاهتمام الذي وجهته الدولة الى حالة العراق الاقتصادية، كانت الضرائب ثقيلة وخاضعة لأهواء الحكام وجشعهم الذي لم يعرف الحدود، ومن تلك الضرائب :ضريبة الخراج وضريبة الرؤوس او الجزية وهي عامة على الجميع، وضريبة الاسواق والعقارات والتمغات وضريبة المراعي وخصة الديوان من الاوقاف ومقدارها العشر، اضافة الى ما كانت تحصل على النقود وانقاص نسبة الذهب والفضة فيها ومصادرة الموظفين، واخيراً ما كان ينفقه اصحاب الدور على الجنود الذين كانت تفرض اقامتهم عليهم احياناً، اما اسلوب جباية الضريبة فكانت على

ثلاثة انواع هي :الضمان والجباية المباشرة والاقطاع، وكان التعسف السمة البارزة في اساليب الجباية المختلفة، وقد ادى ثقل الضرائب وتعسف جبايتها وضعف العناية بنظام الري، الى تدهور احوال البلاد اقتصادياً وازدياد الخراب في بعض المدن فانحسرت المظاهر الحضارية وانتعشت البداوة مكانها.

لم يطل حكم السلالة الايلخانية اكثر من قرن من الزمن، وكان ذلك متوقعاً لكيان لا يقوم الا على القوة والبطش، ومن ابرز اسباب ضعفهم هو الصراع على السلطة بين امراء البيت المالك، وقد ظهرت بداياتها مع موت الايلخان الثاني(اباقا) ابن هولاكو في ٦٨٠ هـ/ ١٢٨٢ م مما فسح المجال لتدخل زعماء المغول، وكانت اطماع اولئك سبباً لقيام الفتنة في اواخر ذلك العهد ثم انهياره، فلما مات الايلخان التاسع(ابو سعيد ٧١١ – ٧٣٦ هـ/. ١٣١٦ – ١٣٣٥ م)ولم يخلف وريثاً تسابق الطامعون الى استغلال الفرصة للوصول الى الحكم، وكانت نتيجة ذلك اندلاع حرب اهلية عمت ارجاء البلاد وانتهت عندما تسنمت الحكم الاسرة الجلائرية في ٧٣٨ هـ/. ١٣٣٧ م.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الثانية باللغة العربية: عهد الاحتلال الجلائري

اسم المحاضرة الثانية باللغة الإنكليزية : The era of the Galilean occupation

المحاضرة الثانية

عهد الاحتلال الجلائري : ٨١٤ – ٧٣٤هـ/ ١٤١١ – ١٣٣٧ م

اسس الشيخ(حسن بن حسين بن اقبوغا الجلائري) المشهور بحسن بزرك(الكبير)الاسرة التي اصبح العراق سنة ٧٣٨ هـ ١٣٣٧ /م جزءاً من ممتلكاتها، وجلائر :هي احدى القبائل المغولية التي ارتبطت بجنكيز خان، ونال زعماؤها نفوذاً لديه، وبرز منهم امراء اشغلوا مراكز مهمة في الجيش المغولي، منهم(ايلكونيان) الجد الكبير لحسن الذي قاتل مع هولاكو في احتلال بغداد وبقي فيها ضمن الحامية التي تركها هولاكو في المدينة، وتزوج حفيده حسين من ابنة الايلخان(ارغون) وصار اميراً على خراسان في عهد ابي سعيد، وساعد هذا الزواج في ان يحتل ابنه حسن مكانة مرموقة في عهد ذلك الايلخان لكونه ابن عمته، وفي ٧٣٣ هـ ١٣٣٢ /اصبح حسن حاكماً على بلاد الروم (الاناضول)واستغل مكانته والنفوذ الذي حققه في ديار بكر والع ا رق، فخاض الصراع الذي اجتاح الامبراطورية الايلخانية على اثر وفاة ابي سعيد في ٧٣٦ هـ ١٣٣٥ /م، وبعد سلسلة من المعارك استقر حسن في بغداد في ٧٣٩ هـ ١٣٣٨ /م، واعلن استقلاله عن الايلخانيين، واصبحت بغداد طوال عهده وجانب من عهد ابنه وخليفته عاصمة للدولة التي شملت سيطرتها اضافة الى العراق الجزيرة ومنها ديار بكر واذربيجان والجبال، وقد شهد العراق في عهده ولاسيما بعد انهيار دولة الايلخانيين في اذربيجان وخراسان ٧٤٤هـ ١٣٤٣ /م وتوقف التهديد الذي كانت تشكله على العراق حقبة من الهدوء والاستقرار وازدياد الاهتمام بالادارة والعمران، وتواصل ذلك في عهد ابنه(معز الدين ٧٥٧– ٧٧٦هـ ١٣٧٤ – ١٣٥٦ /م)الذي اتخذ لقب سلطان، واحتل في ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨ م تبريز التي اصبحت عاصمة الدولة حتى سنة ٧٨٨ هـ/١٣٨٦ .

ان فترة الاستقرار الذي شهدها العهد الجلائري لم تدم طويلاً، فلما مات(اويس)في ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م خلفه ابنه(جلال الدين حسين)وكان ضعيفاً محباً للهو والمجون، فساعد ذلك على انتشار الفتن والاضط ا ربات وتسلط الامراء على شؤون الحكم واشتد الاضطراب بسبب النزاع الذي نشب بين السلطان واخويه(الشيخ علي) حاكم بغداد،(واحمد)حاكم البصرة، واستمر ذلك النزاع حتى سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٣ م وانتهى بمصرع السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم، ولكن الامور لم تستقم للسلطان الجديد اذ وجد نفسه مكرهاً على خوض سلسلة جديدة من المعارك ضد اخويه الشيخ علي الذي اعلن نفسه سلطاناً في بغداد، و(بايزيد)الذي انفصل في مدينة السلطانية(في اذربيجان)، وانقسم قادة الجيش بين الاخوة الثلاثة، حتى تمكنت قوات احمد من قتل الشيخ علي في المعركة التي جرت سنة ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م ثم تم بعدها بين السلطان واخيه بايزيد صلح اصبحت بموجبه منطقة الجبال لبايزيد.

الغزو التيموري:

كان للنتائج التي اسفرت عنها تلك الصراعات اسوء الاثر في احوال العراق الادارية والسياسية، وجاءت الكارثة الكبرى بعد سنوات قليلة حين وصلت طلائع الموجة المغولية الثانية التي لم تقل هولاً عن تلك التي بدأها جنكيز خان، وكان(تيمورلنك)زعيم هذه الموجة الاخيرة التي بدأت اندفاعها من اطراق مدينة سمرقند في ١٣٦٩ م، ولم ينته القرن ال ا ربع عشر حتى اجتاحت القسم الغربي من اواسط اسيا وايران والعراق والاناضول والهند، واطبقت طلائع القوات التيمورية على تبريز في ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦ م بعد ان احتلت السلطانية فانسحب السلطان احمد الى بغداد، ثم زحف تيمور الى بغداد في ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣ م ودخلها بعد ان هرب احمد الى الشام، ونهب الغزاة المدينة ولجأوا الى التعذيب الوحشي للحصول على الاموال، والاعتداء على الاعراض، وانتشرت قوات تيمور في العراق واحتلت معظم مدنه، ولكن في نهاية السنة التالية ١٣٩٤ م، استغل السلطان احمد انشغال تيمور في حربه على القبيلة الذهبية في القفجاق واستطاع بمساعدة(برقوق)سلطان المماليك في مصر وبدعم من

القبائل العربية من استعادة بغداد وطرد الوالي التيموري(مسعود السبزواري)كما نجح في اعادة سلطته الى بقية المدن العراقية، الا انه لم يشعر بالاطمئنان وظل هاجس تهديد تيمور مسيطر عليه، ومع انه نجح في افشال الهجمات التيمورية ما بين سنتي ٨٠١ هـ/ ١٣٩٨ م- ٨٠٢ هـ/ ١٤٠٠ م، فأنه قرر مغادرة بغداد وبعد ان ولى عليها الامير فرج(فروخ)، توجه بصحبة حليفيه كل من امير قبيلة الخروف الاسود التركمانية، و(قره يوسف)حاكم ديار بكر، ولجأ عند السلطان العثماني(بايزيد الاول) (١٤٠٣ – ١٣٨٩)م واحكمت قوات تيمور الحصار على بغداد في ٢٦ ذي القعدة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م، وبعد صمود دام اربعين يوماً دخلتها القوات الغازية، وجرت مذبحة عامة للسكان واستبيحت المدينة ثلاثة ايام اقيمت خلالها عدة ابراج من رؤوس القتلى، ورافق عمليات القتل تهديم للمنشآت العمرانية، وترك تيمور بغداد بسبب تعفن هوائها من نتن الجثث وعاد الى تبريز، بعد ان الحق العراق بالجزء الغربي من امبراطوريته بادارة ابنه (مي ا رن شاه)كما ولي على بغداد حفيده(ابا بكر.)

احدث غزو تيم ور الثاني للعراق فوضى عامة في البلد استمرت اربع سنوات وادت في النهاية الى انحسار النفوذين التيموري والجلائري وقد شهدت هذه المرحلة صراعات متداخلة بين كل من تيمور والسلطان احمد وقره يوسف.

الصراع على السلطة :

اغتنم السلطان احمد فرصة زحف تيمور الى الاناضول في ٨٠٤ هـ/ ١٤٠٢ م فجمع اتباعه وعاد الى العراق عن طريق الفرات حيث التحق به عدد اخر من الاتباع، ونجح في استعادة بغداد ومد سلطانه على المنطقة الوسطى من العراق ، وحاول اعادة الحياة الى العاصمة، ولكن سلطته كانت ضعيفة، كما تواصلت هجمات القوات التيمورية وتمرد عليه الامراء، واعلن حليفه قره يوسف انشقاقه، ونجح في الاستيلاء على بغداد في اواخر ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٢ م مجبراً السلطان احمد على الفرار من جديد الى الشام، وفي السنة التالية هاجمت قوات تيمور بغداد للمرة الثالثة واحتلتها وفر قره يوسف الى الشام حيث تمت تسوية خلافاته مع السلطان(احمد)في المنفى.

ان السياسة التي انتهجتها تيمور طوال سنوات ٨٠٧ – ٧٩٥ هـ/ ١٤٠٥– ١٣٩٣م، وكانت لها اثار سيئة في اوضاع العراق، فقد اودى الغزو بحياة عدد كبير من الناس بسبب الهجمات المتكررة كما سبب في تشريد عدد اخر من السكان وتهجير اصحاب الخب ا رت العلمية والحرفية الى مدن ما وراء النهر، وكان اثرها واضحاً في خفض عدد السكان وتدهور النشاطات الاقتصادية والفكرية والعمرانية.

توفى تيمور في ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م في اثناء زحفه لغزو الصين، وتلت وفاته اندلاع الاضطرابات في ارجاء مملكته التي لم يوحدها ولم يمنعها من التفكك سوى سطوته وبطشه، لذا فقد تشجع السلطان احمد وقره يوسف على ترك الشام واستئناف نشاطيهما مرة اخرى في العراق واذربيجان، فاستعاد احمد بغداد في محرم ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م بعد ان فر حاكمها التيموري(دولة خواجة ايناق)الى فارس اما قره يوسف فذهب الى تبريز، وبذل احمد جهوداً لإعادة تنظيم البلاد وتحصين بغداد ولكن الخلاف مع قره يوسف كان حائلاً دون الاستقرار، ولهذا قرر السلطان حسم الموقف، فهاجم تبريز في ٨١٣ هـ / ١٤١١م وكان ذلك خاتمة لعهد الحكومة الجلائرية وبداية لعهد دولة الخروف الاسود التركمانية.

سار الجلائريون على النظم التي كانت قائمة في البلاد ولم يضيفوا شيئاً جديداً الى ما كان عند اسلافهم من النظم الادارية والحضارية والاقتصادية، ولكن الاهتمام الذي وجه الى العراق وبغداد خاصة ازداد في هذا العهد فبغداد كانت عاصمة للدولة ق ا ربة نصف قرن ولكن الجهاز الاداري كان مضطرباً يسوده الانحلال، ويعزي ذلك الى الحروب بين الجلائريين والحكومات المجاورة وهجمات تيمور لنك المتواصلة على الع ا رق التي لم تفسح المجال للحكام في التفكير بإصلاح جدي، كما ان عوامل اخرة منها ارتباك الادارة وقلة الكفاءة والضبط بين الموظفين ادت دورها في عدم رسوخ السلطة الجلائرية في المدن جميعاً.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الثالثة باللغة العربية: الارض والزراعة

اسم المحاضرة الثالثة باللغة الإنكليزية : Land and agriculture

الارض والزراعة :

كان انهيار الدولة العباسية نكسة في الحالة الحضارية التي عليها العراق آنذاك، فقد فتح الباب امام غزوات اجنبية عاتية، ادنى منه حضارة واقرب الى الحالة البدائية، وادى الى تقلص في دور المدينة وفتور في نشاطاتها الاقتصادية الحرفية والتجارية، اخذ بالظهور في الحقبة اللاحقة وبخاصة في القرن الرابع عشر، حين ضعفت المدينة وقل نشاطها وطغت العلاقات الاقطاعية على العلاقات التجارية المدنية حيثما كان بإمكان الحكام الجدد ممارسة سيطرتهم بالقوة المسلحة، اما المناطق الاخرى وهي التي تمثل مساحات كبيرة من ارض العراق فقد توزعتها القبائل القوية فيما بينها لتمارس عليها اقتصاداً رعوياً غالباً.

لقد اقتصرت نظرة الحكام الى الريف على انه مصدر ثروة يمكن استثمارها في تمويل عملياتهم العسكرية ودفع نفقات جيوشهم الاجنبية، فوزع المغول منذ مطلع القرن الرابع عشر اراضي العراق على جندهم بدل رواتبهم، ولكنهم احتفظوا جرياً– على التقليد الاسلامي برقبة الارض للدولة، بيد ان حدث في عهد السيطرة– الجلائرية ان اخذ نوع من الاقطاع ينتشر ولو بحدود ضيقة عرف باسم (الادرار) وهو يمنح على سبيل الهبة للأشخاص الذين يقدمون للدولة خدمات معينة، ولا يشترط ان يكونوا من العسكريين ليكون بمثابة ا رتب لهم، والمهم في هذا الادرار ان صاحبه كان يمنح من الاعفاءات والامتيازات ما خوله لأن يكون ملكية مطلقة، وبخاصة ما عرف بإقطاع(ادرار مقاصة) فبموجب هذا الاقطاع تبقى الارض او القرية ملكاً مؤبداً لصاحبها ولذريته من بعده ولا يدفع عنها اية ضرائب.

والى جانب هذا النوع بقيت بعض النظم الاقطاعية القديمة، مثل الاقطاع المستند الى احياء الارض الموات، وبموجبه تصبح الارض ملكاً لمستصلح الارض ولذريته من بعده، وتعرف باسم(القرار الشمسي)، كما استمر الحفاظ على الملكيات الموقوفة على المساجد والمدارس، غالباً وتعد وقفية (الخواجة امين الدين مرجان) على منشآته التي اقامها ببغداد(المدرسة المرجانية، دار الشفاء، خان مرجان) من اضخم الوقفيات المعروفة في تاريخ العراق وادقها.

لم يهتم الجلائريون بالنشاط الزراعي الا بما يكفي لاعاشة قواتهم، ولذلك اقتصرت عنايتهم على بغداد والمناطق المحيطة بها حتى ان هذه المنطقة دفعت سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٣ م نصف مجموع موارد العراق آنذاك، مما دل على ان النشاط الزراعي اخذ في هذه الحقبة بالانحسار الى المناطق القريبة من المدن الرئيسة طلباً للامن والحماية، اما اصلاح الانهار وتطهيرها وزيادة الرقعة الزراعية فلم تلق من اولئك الغزاة اهتماماً الا في حالات نادرة، وزاد من تفاقم الاحوال الاقتصادية تكرر وفود الجراد ووباء الطاعون، وتعاقب الغزوات الاجنبية وكثرة التطاحن بين القوى الغازية.

القرة قوينلو ١٤١٠ – ١٤٦٧ م :

بسقوط بغداد على يد شاه محمد بن قره يوسف اصبح العراق جزءاً من دولة عاصمته تبريز عرفت في التاريخ باسم(الخروف الاسود) وكانت تسمى(البارانية) نسبة الى قبائل الغز التركمانية التي نزحت من تركستان الغربية الى جهات اذربيجان وسيواس في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وشاع اسمها(قرة قوينلو)واصبح اصطلاحاً خاصاً بها لاشتهارها باقتناء(الشياه السود)او لأن رايتها تحمل شارة(خروف اسود .

تعاظم شأن القبيلة ايام زعيمها(بي رام خواجة بن تورمش)واصبحت امارة ذات قوة ونفوذ ولاسيما بعد تحالفها مع الدولة الجلائرية في عهد السلطان اويس (٧٧٦– ٧٥٧ هـ/ ١٣٧٤ – ١٣٥٦ م)وعلى اثر وفاة هذا السلطان عمت الفوضى وشاعت الفتن والاضطرابات فانتهز بي رام الفرصة واستولى على الموصل وسنجار.

مرت على الامارة ابان الغزوات التيمورية في اواخر القرن الرابع عشر سلسلة من الانتكاسات، واضطر اميرها قره يوسف بن قره محمد حفيد بي رام الذي تولى الامارة في ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م، ان يلجأ الى الاناضول وبعد ان تمكن من السيطرة مؤقتاً على بغداد في ١٤٠٢ م، اجبر على الفرار الى الشام، وعلى اثر موت تيمورلنك وانفراط عقد امبراطوريته وتفككها، عاد قره يوسف الى اذربيجان في الوقت الذي كانت الدولة الجلائرية تعاني من الانحلال والانحسار، وجاءتها الضربة القاصمة على يد قره يوسف حينما اوقع هزيمة كبرى بجيش السلطان احمد الجلائري قرب تبريز في ٨١٣ هـ / ١٤١٠م واستولى ابنه شاه محمد على بغداد في السنة التالية، متمتعاً باستقلال اداري واسع طوال ولايته التي دامت ثلاثة وعشرين عاماً.

لم يؤل قره يوسف اهتماماً بالعراق حتى وفاته في ٨٢٠ هـ/ ١٤٢٠ م وكان معنياً بتوسيع ممتلكاته ومقارعة بقايا الامبراطورية التيمورية في اي ران في عهد(شاه رخ)، ولكن بغداد اصحبت هدفاً له حينما امتنع ابنه شاه محمد عن تقديم الاموال فحاصرها في سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٨ م، واجبر ابنه على تسليم الاموال، يقول المؤرخ ابن تغري بردي الذي كان قريباً من ذلك العهد(ت ٧٨٤ هـ)عن عهد هذه السلالة بعد موت قره يوسف.." :نسأل الله تعالى ان يلحق به من بقي من ذريته فأنه وأولاده كانوا سبباً لخراب بغداد وغيرها من العراق، وهم شر عصبة، لا زالت الفتن في ايامهم ثائرة والحروب قائمة الى يومنا هذا"...، واحدث موت قره بوسف ارتباكاً وفوضى واسعة شارك فيها اولاده، و ا زدت في ارتباك الاوضاع محاولة الامير التيموري شاه رخ الاستيلاء على تبريز، الا ان الامير(الاسكندر بن قره يوسف)تمكن بعد معارك دامية من السيطرة على الموقف وثبت حكمه في ماردين واذربيجان في ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١ م.

وتعرضت بغداد الى هجوم واسع في ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م شنه(اسبان بن قره يوسف)في محاولة لانتزاع الولاية من اخيه محمد شاه، وبعد معارك طاحنة سيطر اسبان على بغداد والحلة وواسط، وهرب محمد شاه ثم قتل، وحكم اسبان بغداد بصورة مستقلة عشر سنوات حتى وفاته في ٨٤٨ هـ ١٤٤٤ م، فنصب انصاره ولده الصغير(فولاذ)حاكماً، وطمع السلطان(جهان شاه)حاكم امارة القره قوينلو بمد سيطرته المباشرة عليها، فقاد جيشه وحاصر بغداد في ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥ م، مدة ستة اشهر تمكن في نهايتها من دخولها، فخربها وسجن فولاذ الذي لم يلبث ان توفي في سجنه، وربطت بغداد مباشرة بتبريز، ووليها ابن السلطان جهان شاه سنة واحدة، ولى بعدها ابنه الاخر(بير بوداق.)

اطمعت اضطرابات الاوضاع والصراع المتواصل بين القرة قوينلو وبقايا الامبراطورية التيمورية، بير بوداق على الاستقلال عن حكم ابيه السلطان جهان شاه الذي ولاه بغداد، فسار جهان شاه الى بغداد وحاصرها في ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤ م مدة تزيد على السنة اضطر فيها السكان الى اكل الجيف والبحث عن فتات الطعام في المزابل، وتعرضت مع ضواحيها الى خراب مدمر، واخيراً نجح جهان شاه في دخول بغداد في ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٦ م حيث امر باعدام ابنه، وولي عليها(بير محمد الطواشي بن زينل)وعاد الى تبريز.

واغتنم(اوزون حسن الطويل)زعيم امارة تركمانية اخرى مركزها ديار بكر حالة الانشقاق الذي حدث بين جهان شاه وولده، وما رافق ذلك من اضطراب فمد سلطانه الى المناطق المجاورة التابعة للقرة قوينلو، وفي المعركة التي جرت بين الامارتين في ديار بكر سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م دحر جهان شاه ولقي مصرعه، كما اسر ولداه(محمدي مرزا)و(ابو يوسف ميرزا)ثم سار حسن الطويل بعد انتصاره الى بغداد وحاصرها ولكن حاميتها قاومت، واضطر اوزون خسن الى رفع الحصار والتوجه الى تبريز للقضاء على(حسن علي)الذي كان قد تولى السلطة في تبريز بعد مقتل والده جهان شاه، وفر حسن علي الى همدان حيث انتحر في ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م، واستولى حسن الطويل على العاصمة تبريز وبذلك انتهت امارة القرة قوينلو.

اما بغداد فقد توفي واليها بير محمد الطواشي في ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م فتعاقب على حكمها واليان خلال سنة انتهت بتقدم جيش الاق قوينلو بقيادة(مقصود بن حسن الطويل)الذي دخل بغداد وقتل واليها.

الاق قوينلو ١٥٠٨ – ١٤٦٧ م:

وهي من الامارات التي اقامتها العشائر التركمانية النازحة من تركستان الغربية الى اذربيجان وجهات الاناضول في اواخر القرن الثالث عشر، وعرفت باسمها لاشتهارها باقتناء(الشياه البيض)، وكان لها هند بداية ظهورها قوة ونفوذ نظراً لاتباعها سياسة مؤيدة لتيمور لنك، وحصل زعيمها(قره عثمان) على مكانة مرموقة، وثبت اقدام امارته في ديار بكر، وفي عهد حفيده حسن الطويل ازدادت قوة الامارة ونافست غريمتها امارة القرة قوينلو وتمكنت من القضاء عليها في المعركة الحاسمة

التي دارت في ديار بكر عام ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م حينما صرع عاهلها جهان شاه، وضم لإمارته ممتلكاتها كافة ومنها العراق.

تولى ولاية بغداد في العهد الجديد مقصود بن حسن الطويل، ونال العراق شيئاً من الاستقرار والعناية، ولكن سرعان ما اشاع الارتباك في الامارة اثر وفاة حسن الطويل في ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م وخاصة في عهد خليفته(خليل)الذي لم يدم سوى اقل من سنة اظهر فيها تعسفاً، وانغماساً باللهو والترف، فاندلعت حركات التمرد، اذ ثار ابن عم السلطان خليل مراد بن جهانكير والي بغداد، وحاول احتلال

مدينة السلطانية الا انه اندحر امام قوات السلطان وقتل، والتف الامراء الناقمون على خليل حول اخيه (يعقوب)واسندوا ثورته في ديار بكر، فتشجع الامير يعقوب وتقدم بجيشه الى اذربيجان، وعند نهر خوى اوقع هزيمة ساحقة بقوات السلطان وقتله واعلن نفسه سلطاناً في تبريز عام ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨ م وظل يحكم حتى سنة ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٠ م، وتمتعت الامارة خلال تلك الحقبة بشيء من الاستقرار.

وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات وكثرت الحروب الاهلية بين مختلف الطامعين من السلالة الحاكمة، وادى ذلك الى تفكك سلطة الاق قوينلو، واصبح العراق اقليماً مهملاً من دولة مجزأة يتنافس فيها الطامعون لفرض سيطرتهم بالسلب تارة والقتل تارة اخرى، فقد خلف يعقوب ابنه(بايسنقر)وهو فتى في العاشرة من عمره، فطمع الامير(رستم بن مقصود)بالعرش ونجح في دحر بايسنقر ودخل العاصمة تبريز في ٨٩٧ هـ/ ١٤٩١ م، مجبراً السلطان على الفرار.

وتتابعت حركات التمرد والعصيان في عهد الغاصب الجديد ولم تنته الا بعد ان تمكن الامير(احمد) من احفاد حسن الطويل من دحره وقتله في ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٥ م واعلن احمد نفسه سلطاناً، ولكن حكمه لم يدم اكثر من ستة اشهر قتل في نهايتها على ايدي الامراء الاخرين، واعلن ثلاثة من الامراء في وقت واحد انفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة(مراد)وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة.

من هذا الاستعراض السريع للمنازعات والحروب الاهلية التي عمت الامارة يتبين لنا ان العراق في هذا العهد مر بسلسلة من الاضطرابات كانت جزءاً من فوضى عامة سفكت خلالها دماء غزيرة ارضاء لجشع المتنافسين وتسابقهم على السلطة ومحاولاتهم جمع وتكديس الاموال وصرفها على ملاذهم الخاصة، ولم يكن احدهم اذا ما نجح مؤقتاً في الوثوب الى الحكم يفكر بالقيام بأي اصلاح كأن يحفر ترعة او يشيد قنطرة او يصون سداً او يستصلح تربة او يرعى عالماً، تلك كانت بعيدة عن عقول هؤلاء الحكام الذي جاءوا في ظروف غير طبيعية، عانى فيها العراقيون كثيراً وكتب عليهم ان يحيوا حقباً من الفزع والحروب الاهلية استنزفت خيرات البلاد، ولكل هذا فليس من القريب ان نرى انهيار هذه الامارة على يد طامع جديد من سلالة اخرى هو(اسماعيل الصفوي)مؤسس الدولة الصفوية.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الرابعة باللغة العربية: الصفويون

اسم المحاضرة الرابعة باللغة الإنكليزية : Safavids

الصفويون:

ينتمي الصفويون في الاساس الى اسرة تركمانية صوفية تنتسب الى الشيخ صفي الدين المتوفي عان ١٣٣٤م واشتهر هذا الشيخ في اردبيل بطريقته الصوفية التي حققت نفوذاً واضحاً في انحاء اذربيجان وتزايد نفوذ ومكانة هذه الاسرة، فلم ترتح لها حكومة القره قوينلو واضطهدتها مما دفع رجال الاسرة الى الاحتماء لدى حسن الطويل زعيم الاق قوينلو فلما قوض هذا دولة القره قوينلو ارتفع شأن رجال الاسرة الصفوية.

استغل اسماعيل بن حيدر الصفوي حالة الفوضى والتمزق في حكومة الاق قوينلو فقد هاجمهم ودمر نخجوان ودخل تبريز في مطلع القرن السادس عشر حيث اعلن نفسه شاهاً، وخلال سنوات قليلة من استيلائه على اذربيجان ودخوله تبريز حقق سلسلة من الانتصارات مكنته من مد حكمه على ارجاء ايران.

اما سلطان القره قوينلو فقد توجه الى شيراز ومنها توجه الى بغداد محاولاً اعادة الحياة الى امارته المتداعية وحاول مصالحة الشاه اسماعيل وارسل اليهم وفداً على ان يبقى في بغداد ويدفع جزية للشاه، الا ان اسماعيل لم يسمح للوفد بالوصول اليه وامر فذبحوا جميعاً.

قضى السلطان مراد في العراق خمس سنوات يشوبها الذعر والقلق بسبب تصاعد واتساع قوة خصمه اسماعيل الذي بسط حكمه على كل الهضبة الايرانية ثم استولى على ديار بكر بين عامي ١٥٠٥ و ١٥٠٧م، ثم وجه انظاره الى العراق ، وكانت تطلعاته الى العراق تعبر عن اسباب سياسية واقتصادية فالعراق الزراعي الخصب يمكن ان يسد الكثير من حاجات سكان الهضبة الايرانية الفقيرة، كما ان الاستحواذ على بغداد قلب العالم الاسلامي يعطي للشاه مكانة رفيعة لدى المسلمين طبقاً للأحلام التي كانت تساوره.

احتلال بغداد :

كان السلطان مراد بن يعقوب يدرك عجزه عن الوقوف وحده امام اطماع الشاه، ولذلك استنجد بإمارة ذي القدر في الاناضول ولكنها تعاني من الخور والضعف في اواخر ايامها، ولهذا باءت محاولات

الاسناد التي قدمها اميرها(علاء الدين)له في ٩٠٩ و ٩١٤ هـ/ ١٥٠٢ و ١٥٠٧ م، بالفشل، وتعرضت اراضي الامارة في الاناضول الى تخريب شامل ومذابح ماحقة مروعة ارتكبتها قوات الشاه، فاتجه السلطان الى(قانصوه الغوري)اخر حكام المماليك في مصر والشام الذي كان يدرك خطورة استيلاء الشاه اسماعيل على الع ا رق، وقد اتخذ الغوري بعض الاجراءات الاولية لإعداد حملة ضد الشاه وفرض الضرائب على اهل دمشق لتمويل كتائب المشاة التي ستتحشد في حلب استعداداً لمجابهة الشام، ولكنه في واقع الامر لم يكن مستعداً عملياً لنجدة م مراد بن يعقوب وانقاذ العراق ، فالظروف العامة التي كانت دولة المماليك تواجهها حينذاك، لم تسمع للسلطان الا بمناورات عسكرية فقط دون ان تورطه في حرب حقيقة على الشاه، فالتهديد البرتغالي للبحار العربية جعلت السلطان يوليه اهتماماً كبيراً مفضلاً عدم فتح جبهة جديدة غير مستعد لها، وهكذا ترك صاحب العراق يواجه مصيره بمفرده، ولذلك لم تكن مهمة الشاه صعبة خلال عملياته العسكرية التي انتهت باستيلائه على بغداد وبقية انحاء العراق في ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨ م.

استطاع الشاه اسماعيل التقدم الى بغداد بجيش كبير وارسل في المقدمة فرقة من الفرسان القزلباش يقودها(حسين لاله)وتقدمت قوات الغزو من كرمنشاه الى خانقين، وبالرغم من ان حاكم بغداد استعد لمواجهة تلك القوات، الا انه وجد نفسه اضعف من ان يستمر في الدفاع عن المدينة التي لا تربطه بها رابطة قوية لاسيما بعد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي ارعبتها ابناء الفظائع التي كان ينزلها الشاه اسماعيل بالقوى التي تقف امامه، لهذا سارع الى الفرار قاصداً مدينة حلب ومن هناك اتجه الى ديار بكر، ودخلت قوات حسين لاله بغداد بدون مقاومة، وفي ٢٠جمادي الثانية ٩١٤ هـ / ١٥٠٨م دخلها الشاه اسماعيل وعين(خادم بيك) والياً على المدينة واطلق عليه لقب(خليفة الخلفاء)وهذا يعكس غطرسته المقيتة واطماعه وطموحه ومحاولته فرض نفوذه على العالم الاسلامي، وبالرغم من ان الشاه دخل بغداد سلماً فأنه امر بمذبحة ا رح ضحيتها عدد كبير من السكان دون مبرر، وشار المؤرخ ابن شدقم الى ذلك بقوله" :فتح(الشاه)بغداد وفعل باهلها ...ما لم يسمخ بمثله قط في سائر الدهور بأشد انواع العذاب."

اتبع الشاه اسماعيل سياسة تفريق صفوف الامة الواحدة فتظاهر بالاهتمام ببعض المراقد الدينية المقدسة، بينما كان في الوقت نفسه يقوم بضرب القبائل وسلي اموالها وباضطهاد قسم من السكان وتخريب مزاراتهم.

ويعلق الاستاذ عباس العزاوي على ذلك بقوله" :ان الداعي لهذه الاعمال من تعمير مراقد الائمة وتخريب مشاهد الاخرين لا يقصد به الا تفريق الامة العراقية واضعاف مقاومتها، ولم يكن غرضه الحرمة الدينية والخير للامة"، ثم غادر الشاه بغداد وبعد ان ضم البصرة الى ممتلكاته، سلك طريق تستر والحويزة حيث قضى على الامارة المشعشعية هناك ومد سيطرته على الاحواز كلها.

الصراع مع العثمانيين :

ينتمي العثمانيون الاوائل الى احد عشائر قبيلة الغز التركية، تعرف بأسم قابي، هاجرت من المشرق الى الاناضول في القرن الثالث عشر للميلاد، تحت ضغط تحرك المغول في اواسط اسيا، وتمكن عثمان(الذي ولد على حسب الروايات التاريخية سنة ١٢٥٨ م اي سنة احتلال المغول بغداد)من تأسيس امارة قوية استظلت بدولة السلاجقة الروم اول الامر، وتوسعت على حساب الدولة البيزنطية وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانين تمكنت الامارة من استقطاب عدد من الامارات التركية المسلمة في الاناضول، وهي الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة، واستأنفت توسعها غرباً ليتحول منذ سنة ١٣٤٥ م الى أوربا الشرقية، حيث استولت على اجزاء كبيرة منها، ولم تنجح غزوات تيمور لنك سنة ١٤٠٠ م في القضاء على الدولة العثمانية رغم سيطرتها على قسمها الاسيوي كله، اذ سرعان ما استطاعت ان تعيد حكمها في هذا القسم، وان تتوج اعمالها العسكرية في عهد (محمد الفاتح)بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م وضم اجزاء اخرى من اوربا الشرقية، وما ان انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الاناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان جزائر بحر ايجة وجزيرة في جنوب ايطاليا، وفي عهد سليم بن بايزيد(سليم الاول ١٥٢٠ – ١٤١٢)م اتخذت الدولة اخطر قرارتها حين استدارت لأول مرة منذ تأسيسها الى الشرق العربي، وقدر للعراق ان يتحول الى ميدان لصراع دموي بين السلالات الحاكمة في ايران والعثمانيين استمر بشكل متقطع حتى القرن التاسع عشر، ذلك ان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران شكل بالنسبة الى السلطان العثماني خطراً لا يمكن تجاهله، كما ان اطماع الشاه اسماعيل التي لا تعرف الحدود دفعته للعمل على مد

سلطانه الى الاناضول وبلاد الشام من جهة، والى الوقوف موقفاً متخاذلاً من التهديد البرتغالي المتسم بروح صليبية عارمة ضد العالم الاسلامي من جهة اخرى، وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون يركزون نشاطهم في شرقي اوربا والبلقان، ويبذل المماليك في السنوات الاخيرة من عمر دولتهم محاولات مستميتة من اجل التصدي للخطر البرتغالي في البحر الاحمر والمحيط الهندي، كان الشاه اسماعيل يسعى الى استغلال الاوضاع القائمة لتحقيق اطماعه متجاهلاً المصالح الاسلامية، فرسم سياسته التوسعية على اساس التحالف مع البرتغاليين في الخليج العربي، والتنسيق مع القوى المعادية للدولة العثمانية ودولة المماليك في مصر والشام، وبعث بوفوده الى اوربا مفاوضاً ملوكها للتحالف ضد سلطان مصر واقتسام املاكه، على ان تكون مصر وفلسطين من نصيبهم، بينما يستحوذ هو على بقية بلاد الشام، وبذلك يطل على البحر المتوسط، وقد تزامنت مشاريع الشاه هذه مع سعيه الى انتزاع الاناضول وانهاء الدولة العثمانية، ادرك السلطان سليم الاول خطر الصفويين فتحرك لاجتثاث ذلك الخطر، وبعد ان قضى على انصار الصفويين في الاناضول تحرك على رأس جيش جرار صوب الشرق في ربيع ١٥١٤ م باتجاه تبريز عاصمة الصفويين ودحر في جالديران ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م الجيش الصفوي الذي يقوده الشاه اسماعيل في واحدة من اشد المعارك ضراوة، وانتهت بتحطيم الجيش الصفوي وفرار الشاه جريحاً من ميدان المعركة، وتقدم سليم فدخل تبريز في ٤ ايلول، وبعد ان امضى في المدينة ثمانية ايام غادرها عائداً الى بلاده، وقد تضافرت عوامل عدة حالت دون تمكن السلطان من مواصلة تعقب اسماعيل والقضاء على الدولة الصفوية، منها :قلة المؤن وامتداد خطوط المواصلات ووعورة المسالك وتقاعس الفرق الانكشارية(وهي عماد الجيش العثماني)عن التقدم.

اسفر الانتصار العثماني في جالدي ا رن عن نتائج مهمة، فمع انه لم ينه الدولة الصفوية الا انه اصابها بضربة قاسية وجعلها تقبع في ايران، كما سعى الشاه الى تأكيد تحالفه مع أوربا من اجل اضعاف العثمانيين فارسل وفوداً الى صربيا وهنغاريا ودول اوربية اخرى لهذا الغرض، وفيما يخص العراق، فأن العثمانيين مدوا سلطانهم على اجزائه الشمالية، ومنها الجزيرة والموصل وسنجار وتلعفر والعمادية واربيل وكركوك وهيت وحديثة وعانه.

وقد زعزع انتصار العثمانيين النفوذ الايراني في المنطقة وهز كيان الموالين لهم ومهد السبيل لطردهم من بقية اجزاء العراق، ولم يترك احتلال الصفويين للعراق اثراً مهماً في تاريخ العراق سياسياً او اقتصادياً، حيث لم يتغير ما كان سائداً فيه في الحقب السابقة سوى تبديل اشخاص الحكام باخرين، وظل نظام الاراضي كما كان عليه في الماضي، ولم يحدث ما يشير الى اهتمام بإصلاح طرق الري.

حركة ذي الفقار الاستقلالية ٩٣٦ – ٩٣٤هـ/ ١٥٢٩ – ١٥٢٧ م استغل احد الزعماء الاكراد من قبيلة موصلو وهو(ذو الفقار بين علي بك) ضعف النفوذ الصفوي في الع ا رق الاوسط والجنوبي فقام في صيف ١٥٢٧ م بحركة بارعة اغتال فيها(ابراهيم خان)والي العراق الصفوي في اثناء توجهه للقاء الشاه (طهماسب)وانضمت القوة التي كان يقودها ابراهيم خان على الاثر الى اتباع ذو الفقار وتوجه هو على رأس تلك القوة الى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ثم استولى عليها واعلن استقلاله عن الدولة الصفوية، وقد تقرب من الاهلين(بإشاعة العدل فالتف حوله الناس.

ادرك ذو الفقار منذ بداية حركته ان امكاناته لا تقارن ازاء سيطرة الصفويين، ولهذا بادر الى الاستعانة بالدولة العثمانية فاظهر ولاءه لها وامر بذكر اسم السلطان(سليمان القانوني ٩٧٤ – ٩٢٦ هـ / ١٥٦٦ – ١٥٢٠م) في الخطبة ونقش اسمه على النقود، وبعث اليه بسفارة للإعراب عن ولائه له، لذلك جهز الشاه طهماسب الذي تولى العرش في ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م جيشاً كبيراً تقدم به الى بغداد وفرض حصاراً عليها، وفشلت هجمات الجيش الصفوي كافة امام صلابة المقاومة التي قادها ذو الفقار غير ان اخوين من اقرباء ذو الفقار قاما باغتيال الثائر غدراً فانهار المقاومة وعادت سيطرة الصفويين الى العراق مرة اخرى، وكافأ الشاه المتآمرين فمنح احدهم منصب الامارة ولقبه سلطان علي ذو الفقار كش(اي قاتل ذو الفقار)وعين الاخر واليا على المدينة كما عين عدداً اخر من الشخصيات الفارسية حكاماً على عدد من مدن العراق وامر بتعزيز دفاعات بغداد ثم عاد الى قزوين، وفي الوقت الذي سقطت فيه بغداد بيد الصفويين تعرضت البصرة الى الحملة البرتغالية الاولى بقيادة (مونا دي كونها) بذريعة مساعدة حاكم البصرة ضد شيخ الجزائر، وقد لفت هذان الحدثان:

عودة الاحتلال الايراني الى العراق والتعديد البرتغالي لرأس الخليج العربي، نظر السلطان سليمان القانوني الى خطورة الحالة التي تهدد ظهر الدولة العثمانية نظراً لسلسلة المحالفات السياسية والعسكرية بين الصفويين والقوى الاوربية، في وقت كانت فيه الدولة منصرفة الى قتال الامبراطورية

الرومانية المقدسة في شرق أوربا والبحر المتوسط وشمال افريقيا، ولهذا بدأ السلطان يفكر جدياً في مد سلطانه على العراق، واخذ الاستعداد لإرسال حملة كبيرة الى ايران قدر لها الاستيلاء على بغداد وبقية العراق في نهاية ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الخامسة باللغة العربية: عهد الحكم العثماني الاول

اسم المحاضرة الخامسة باللغة الإنكليزية : The era of the first Ottoman rule

عهد الحكم العثماني الاول

خطط العثمانيين العسكرية :

في مطلع ربيع الثاني ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣ م أصدر السلطان سليمان القانوني أمره الى الصدر الاعظم ابراهيم باشا بالتوجه على رأس قوة من ٨٠,٠٠٠ رجل الى اذربيجان .ونجح هذا في اخت ا رق اذربيجان واستولى على تبريز في تموز ١٥٣٤ م.

ولتحقيق نتيجة حاسمة ضد الصفوين، سار السلطان على رأس جيش في ذي القعدة من السنة نفسها متجها الى تبريز، وفي نهاية ربيع الاول ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م، التقى السلطان بصدره الاعظم قرب تبريز، ومن هناك تحرك على ا رس القوات العثمانية متجها الى السلطانية جنوبي بحر قزوين للقاء طهماسب والاستيلاء على عاصمته قزوين والاجهاز على الدولة الصفوية، واوقع هزيمة كبيرة وماحقة بالجيش الصفوي بالقرب من نهر(قزل اوزون)في الجنوب الشرقي من اذربيجان، وانفتح الطريق أمامه الى قزوين ولكن ما فشل فيه الشاه من مواجهة الجيش العثماني نجح فيه الطقس وسوء الاحوال الجوية، حيث هطلت الامطار الغزيرة وتساقطت الثلوج واشتد البرد وساءت الطرق فأصبح من العسير سير العربات وجر المدافع، مما أثر كثيراً في نفسية الجنود العثمانيين، فجعل تحقيق الهدف من التقدم أمراً مستحيلا، فأمر السلطان جيشه بالانحراف نحو بغداد، ويعلق المؤرخ النهروالي عليه بالقول... " : نزلت الثلوج الكثيرة وكأنها الجبال وتوارى الفرس امام السلطان وصار الشاه يخادع ويخاتل فلزم التوجه الى بغداد لصون الرجال."

وسلك السلطان طريق همدان بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق، وبذلك قطعت القوات العثمانية امكانية نجده الصفويين لحاميتهم في العاصمة العراقية، وأثر تقاعس طهماسب عن مواجهة الزحف العثماني سلباً في الأمراء الخاضعين له والمنتشرين على الطريق الى بغداد، فاعلنوا خضوعهم للعثمانيين، وعند اقتراب الجيش العثماني من بغداد هرب حاكمها(محمد خان تكلو) بعد أن يئس من وصول الإمدادات اليه وثبت لديه أن الجيش الايراني الرئيس لم يجرؤ على خوض معركة توقف تقدم السلطان في قلب ايران نفسها.

احتلال بغداد وتوطيد السلطة الجديدة :

ودخل الصدر الأعظم بغداد في ٢٤ جمادى الثانية ٩٤١ هـ/ ٣١ كانون الأول ١٥٣٤ م، وبعده بيومين دخلها السلطان سليمان وسط مظاهر الابهة والفخامة ،ومن الجدير بالذكر أن السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفاً من عدم امكانية كبح جماحهم، وشدد على عدم الحاق الأذى بالأهالي، فكسب رضاهم ، كما سعى الى تعزيز ولاء السكان فقام بزيارات للاماكن المقدسة ورصد الأموال لها، وامر ببعض المشاريع العمرانية ومن اهمها بناء سد ترابي لوقاية كربلاء من الفيضان وتوسيع الترعة المعروفة بالحسينية لجلب المياه العذبة من الفرات اليها فامتدت في الأراضي المحيطة بها البساتين وحقول القمح، وهرع الأعيان وشيوخ القبائل والوفود من مختلف المدن الى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان العثماني، كما وصل بغداد الشيخ ارشد ابن أمير البصرة مغامس بن مانع، يعلن انضمام البصرة والحويزة ولورستان الى العثمانيين، وبذلك سيطر العثمانيون على واحد من الطرق التجارية المهمة التي تربط الشرق الأقصى باوربا، كما سيطروا على الرأس الشمالي للخليج العربي.

وترتبت عليهم نتيجة لذلك، مسؤوليات دفاعية جديدة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي، فأمر السلطان بإعداد الأسطول العثماني لمنازلة البرتغاليين الذين تزايد نفوذهم في البحار العربية، ثم عين حاكم ديار بكر(سليمان باشا الطويل) والياً على بغداد، وابقى فيها حامية مؤلفة من ١٠٠٠ جندي مزودين بالأسلحة النارية و ١٠٠٠ فارس، وهيأ لها تموينا كافياً للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم ايراني، وعاد بطريق أذربيجان، واضطر الشاه طهماسب الى طلب الصلح ، ووافق سليمان على الطلب واخلى تبريز مقابل تعهد الشاه بعدم الاعتداء.

الادارة :

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العراق قسمته على أربع ولايات :بغداد، وفيها ثمانية عشر سنجقاً أو لواء اضافة الى المركز، والموصل، وفيها ستة سناجق، وشهرزور وفيها واحد وعشرون سنجقا بما فيها القلاع، والبصرة، ولم يكن فيها سناجق لتركيبها العشائري وتجبى ضرائبها بالالتزام . وقد حدثت فيما بعد تبدلات فرعية في هذه التقسيمات .ويرأس الجهاز الحكومي الوالي وغالباً ما يكون برتبة وزير، ولوالي بغداد صلاحيات اوسع مما لولاة الولايات الأخرى، فكان له حق تعيين بعض الموظفين ومصادرة الأموال وهو مسؤول عن الادارة المدنية والعسكرية، وعليه ضمان ولاء ولايته

والمحافظة على أمنها وقيادة الجيش في الحملات العسكرية ويساعد الوالي موظف يعرف باسم كتخدا (خفقت فيما بعد إلى كهية)، وهو يعاون الوالي في الشؤون العسكرية والسياسية وينوب عنه عند غيابه .

اما الدفتر دار فهو المسؤول عن الأحوال المالية بتسجيل ايراداتها ومصروفاتها في سجل خاص . ويلي الوالي في المكانة الاجتماعية القاضي، فهو مسؤول عن تطبيق العدل والاهتمام بالمسائل الشرعية والاشراف على جمع الضرائب ومراقبة الأسواق، وغالبا ما تكلفه الحكومة المركزية بمراقبة سلوك الوالي، ويساعد القاضي في تنفيذ اوامره موظفان، يلقب الاول ب(صوباشي)وهي رتبة عسكرية وهو بمثابة رئيس للشرطة في وقت السلم وقائد فرقة في وقت الحرب، والثاني يعرف باسم (احتساب أغاسي)أي المحتسب ، وواجبه معاونة الصوباشي والاشراف على تنفيذ الأوامر ومراقبة الأسواق، وبالإضافة الى هذه المناصب هناك :أغا الانكشارية وهو قائد الحامية، و(المكتوبجي)كاتب الرسائل و(مهردار)حامل الاختام و(خزنة دار)أمين– الصندوق و(احتشامات أغاسي)رئيس التشريفات ، و(روزنامة جي)- كاتب الوقائع hاليومية، وغيرهم من الموظفين الاقل مرتبة.

توطيد السلطة :

وكانت كبرى المشكلات التي واجهت الحكم العثماني للعراق في ولايتي شهرزور والبصرة .فالأولى في منطقة الجبال على الحدود مع الدولة الصفوية ولهذا تعرض الحكم العثماني فيها الى الاخطار باستمرار، أما البصرة، فهي تقع في منطقة قبائل شديدة الم ا رس، وكانت دائما تنازع سلطات بغداد . وقد أبدى العثمانيون مرونة مع الأسر المحلية المتنفذة التي أعلنت ولاءها ومنها اسرة الشيخ (راشد بن مغامس) التي كانت تحكم البصرة وأقرها السلطان سليمان القانوني في حكمها، كما مر بنا ولكن اجراءات العثمانيين في تثبيت سلطانهم على منطقة البصرة والتحكم بشبكة الطرق التجارية، دفعت اسرة راشد الى الثورة، فكانت هذه الثورة من جهة، ورغبة العثمانيين في السيطرة الفعلية على رأس الخليج العربي، من جهة اخرى، سبب قيام الحملة العثمانية الكبيرة التي وجهت الى البصرة بقيادة والي بغداد(أياس باشا)في ١٥٤٦وسعى القائد العثماني في خلال تقدمه الى اخضاع القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة، ونجح في الحاق الهزيمة بشيخ مشايخ آل قشعم الذي يلقب بشيخ العراقين أي شيخ الكوفة والبصرة ثم هزم آل مغامس ودخل البصرة حيث ربطها بالحكم العثماني المباشر .

وبانهيار زعامة آل قشعم، برزت زعامة قبيلة المنتفق التي اصبح لها النفوذ فيما بعد، غير أن الاجراءات التعسفية التي اتخذها العثمانيون ادت الى ثورة تزعمها(علي بن آل عليان)كبير مشايخ الجزائر في ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م وكلف السلطان والي بغداد(تمرد على باشا)لاخماد الثورة، واصدر امره الى والي سيواس(محمد باشا البالطهجي)للتقدم على رأس قوة من الانكشارية للمساعدة في العملية .

وتقدمت القوات العثمانية الى واسط ومنها توجهت الى المدينة(قرب القرنة) مركز ال عليان، وبعد معارك شديدة بين رجال القبائل والقوات المهاجمة، فشل العثمانيون في تحقيق نتيجة حاسمة وبسبب طبيعة المنطقة غير المواتية للحروب النظامية وامام بسالة المقاومة، وجد القائد العثماني تمرد علي باشا، نفسه مجبراً على الانسحاب، وكلفه فشله منصبه، حيث صدر الأمر بعزله وتعيين محمد البالطهجي باشا لمنصب والي بغداد، ولكن الدولة، نظراً لأهمية جنوب العراق ولاسيما البصرة من الناحيتين الستراتيجية والتجارية، وخوفا من استغلال البرتغاليين حلفاء- الصفويين المتربصين عند مداخل الخليج، استمرت في سياستها الهادفة الى اخضاع القبائل واتباع سياسة قمعية شديدة .وقد أدى فشل الأسطول العثماني في صراعه مع البرتغاليين ١٥٥٣ - ١٥٥١ الى اضعاف هيبة العثمانيين في المنطقة، فاستغلت القبائل العربية ذلك المعاودة الثورة واستطاع آل عليان في ١٥٥٣ صد حملة عثمانية وقتل عدد من أفرادها

.وتزايدت جرأة القبائل واخذت تهاجم الحامية العثمانية في البصرة بشكل متواصل .واشتدت ثورة آل عليان خطورة في عام ٩٧٥- ٩٠٤ هـ/ ١٥٦٧ - ١٥٦٦ م ، فنظمت الدولة حملة كبرى في ٧٥٦١ اشتركت فيها حاميتا شهرزور والموصل كما أرسلت حوالي ٤٥٠ سفينة مزودة بمئتي مدفع عن طريق (بيرهجك باشا)عبر الف ا رت ، وانيطت قيادة الحملة بوالي بغداد(اسكندر باشا)واستطاع العثمانيون تحقيق بعض النجاح، ولكن رجال القبائل واصلوا المقاومة بأسلوب حرب العصابات وكبدوا القوات العثمانية خسائر كبيرة، فلم يكن من اسكندر الا ان واصل ضغطه وامر ببناء بعض القلاع في المناطق الاستراتيجية لتعزيز الوجود العسكري، ولكنه فشل في احراز نصر حاسم على رجال القبائل .

فأمر بقطع اشجار النخيل واتلاف المحصولات التي تعيش عليها القبائل، مما اضطر علي بن عليان الى طلب الصلح لقاء دفع ضريبة الى خزينة البصرة وتسليم أحد أولاده رهينة لدى السلطان، ولكن

الأمن لم يستقر، وظلت الادارة مضطربة، وقلت واردات الولاية حتى أصبحت لا تكفي لسد نفقاتها، فاضطر الوالي علي باشا إلى تسليم أمور الولاية الى كاتب الجند(افراسياب بن احمد)سنة ١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٦ م لقاء دفع ثمانية اكياس رومية حوالي ٤٠,٠٠٠ (قرش)على ان تستمر الولاية مرتبطة بالدولة العثمانية وتدفع الجراية السنوية للخزينة المركزية، وبذلك تشكلت امارة لا تدين للدولة الا بولاء اسمي إلى أن زالت في ١٦٦٨ م اثر الحملة العثمانية التي قادها والي بغداد(قرة مصطفى)لانهاء استقلالها .

وقد حققت امارة آل افراسياب في خلال حكمها للبصرة درجة من الرخاء والاستقرار والرفاه يفوق حال مدن العراق الاخرى سادت العراق حقبة من الاستقرار دامت قرابة نصف قرن، تخللها عدد من الاضطرابات في منطقة البصرة نتيجة الثورات القبلية .وقد ادرك سليمان القانوني اهمية العراق وان ضياعه يعني تجدد الاطماع الايرانية في الأناضول .فعمل على التمسك به، وجند في سبيل ذلك امكانات مالية وعسكرية كبيرة تحديا لإيران واصراراً على الوقوف أمام اطماعها .

واصبحت السياسة العثمانية في عهد قوة الدولة تقوم على الحفاظ على الع ا رق وعدم التساهل في التنازل عن أي جزء منه .واختار العثمانيون لولاية الع ا رق رجالا امتازوا بالج أ رة والبسالة جاءوا الى العراق ووراءهم امجاد عريضة في سوح المعارك، وكان لدى قسم منهم كفاءة ادارية، فنشطوا في تأمين النظام داخل المدن، وفي قتال القبائل البدوية خارجها .وصد تدخلات الصفويين عبر الحدود .

وشيد بعض أولئك الولاة في بغداد عددا من الجوامع والمدارس من ابرزها جامع المرادية الذي شيده والي بغداد(مراد باشا)كما عمر والي بغداد(سنان باشا جغال زاده)جامع الصاغة او جامع الخفافين، وأعاد بناء التكية المولوية(التي عرفت فيما بعد باسم جامع الآصفية)، كما بني خانا ملاصقا للمدرسة المستنصرية مما دل على ازدهار الحالة الاقتصادية .

وبني(حسن باشا الصوقلي) جامع الوزير في بغداد وهو اول جامع يشيد بالحجر الذي جلب من الموصل عن طريق نهر دجلة، واحيا اجزاء من الأراضي الزراعية، كما وسع الخندق المحيط بسور المدينة وشيد سوقا وخانا.

ونشطت الحياة التجارية نشاطاً ملحوظاً في هذه الحقبة، واصبحت بغداد مركزاً تجاريا مهماً .فقد زارها عدد من الرحالة والتجار الأجانب ودونوا انطباعاتهم عنها .واشار بعضهم إلى ما فيها من ارصفة للمراكب، وبضائع تباع بأسعار رخيصة، ودار لضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية.

ثم أخذ الوضع العام في العراق بالتدهور، وبدأت الفوضى وعدم الاستقرار بالانتشار مع مطلع القرن السابع عشر، وكثرت الحركات الانفصالية، فاستغلها الصفويون المتربصون بالعراق لغزوه .وترجع هذه الحالة الى الوهن الذي دب في أوصال الدولة العثمانية نفسها منذ أواخر القرن السادس عشر نتيجة لعوامل داخلية وخارجية متشابكة، منها :ضعف شخصيات السلاطين وتضاؤل قد ا رتهم وقابلياتهم، وفساد الجهاز الاداري والعسكري، وتمردات الانكشارية، وتدخل الحريم في شؤون الدولة، والازمة الاقتصادية المتمثلة في هبوط قيمة العملة .وتزايد قوة أعداء العثمانيين في اوربا ولاسيما روسيا والامبراطورية الرومانية المقدسة .

فأدت هذه الحالة الى الاستهانة بهيبة الدولة في مختلف أرجاء البلاد، وظهور حركات انفصالية في ولاياتها البعيدة، ومنها الع ا رق حيث حاول أحمد الطويل في بغداد وابنه محمد الطويل وأخوه مصطفى الطويل الاستقلال وقد رافق ذلك انقسام داخلي وهجمات إيرانية لاحتلال بغداد، الا ان اخطر هذه المحاولات كانت محاولة بكر صوباشي لانها أدت الى احتلال الصفويين بغداد ومناطق أخرى من العراق في ١٦٢٣ م.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة السادسة باللغة العربية: حركة بكر صوباشي والغزو الايراني للعراق

اسم المحاضرة السادسة باللغة الإنكليزية : Bakr Subashi movement and the Iranian invasion of Iraq

حركة بكر صوباشى ١٠٣١ – ١٠٣٣ هـ /١٦٢١– ١٦٢٣ م والغزو الايراني للعراق :

ذكرنا آن تردي الأوضاع وضع المركزية هيأ الظروف لظهور عدد من المغامرين الطامعين بالسيطرة على مقاليد الأمور في الولايات العثمانية ومن هؤلاء بكر صوباشي الذي بدأ حياته جنديا انكشاريا، وتدرج في منصبه في بغداد حتى أصبح صوباشيا(قائدا للشرطة)وصاحب النقود الأول بين الانكشارية، وتمكن من أن يحيط نفسه بعدد كبير من السكبانية(من فرق المشاة المحلية رماة البنادق) و١٠٠٠ من العزب(من فرق المشاة غير النظامية التي تتقدم الجيش العثماني أثناء الهجوم)واربعة آلاف من الانكشارية .وقيل ان عدد القوات التي كانت تأتمر بأمره بلغ ٠٠٠ ، ١٢ رجل.

بدأ نفوذ بكر يلفت النظر منذ عام . ١٦١٩ فت أ رس بعد عامين حملة تأديبية ضد بعض القبائل في الفرات الاوسط التي هددت الأمن ثم أقام ابنه محمداً في مركز الصوباشي في بغداد، واستغل الوالي غياب بكر عن بغداد فهاجم داره ونهبها، وحينما علم بكر بما وقع أسرع بالعودة الى بغداد التي تحولت الى ميدان حرب بين انصاره وأتباع الوالي .وحاصر بكر القلعة وقصفها ، فقتل والي بغداد بطلق ناري واضطر المحاصرون الى الاستسلام.

وتسلم بكر صوباشي حكم بغداد، وارسل يطلب من السلطان العثماني الانعام عليه بباشوية الولاية، ولكن الدولة علمت بتطورات الموقف ورفضت ذلك وعدته متمردا على السلطة الشرعية وعينت واليا على بغداد(سليمان باشا)والي ديار بكر فارسل سليمان(كهيته علي آغا)لتسلم المدينة .ولكن صوباشي طرده، كما دحر القوة التي سار على أ رسها الوالي الجديد، فعينت واحدا من ابرز القادة العسكريين العثمانيين آنذاك وهو(حافظ احمد باشا)لقيادة الحملة الجديدة ضد بكر.

تقدم حافظ احمد على أ رس جيش كبير وهزم القوة التي أرسلها بكر للتصدي له، وأحكم الحصار على بغداد .وقرر بكر وقد رأى الخطر المحدق به، الاستعانة بالشاه(عباس الصفوي ٩٨٩ – ١٠٣٨ هـ / ١٨٥١–١٦٢٩م) فبعث برسول الى(حسين خان)حاكم لورستان ليعرض على الشاه استعداده لجعل الخطبة والسكة في بغداد باسم الشاه بشرط يبقى حاكماً عليها، فوافق الشاه فوراً وأرسل جيشا من

٣٠,٠٠٠ رجل بقيادة(صفي قلي خان)حاكم همذان لاختراق العراق، وحينما وصل هذا الجيش خانقين .ادرك حافظ أحمد حراجة الموقف، فارسل فرمانا باسم السلطان يتضمن العفو عن بكر وتوليته بغداد، ثم انسحب باتجاه الموصل الى ديار بكر.

وبذلك حقق بكر صوباشي طموحه، واخذ يسعى للخروج من ورطته مع الشاه .فأرسل وفدا اجتمع بصفي قلي خان لتقديم الشكر إلى الشاه عباس على(مساعدته) وللإعلان عن استعداده لتحمل نفقات الحملة الايرانية كافة، ولكن الشاه، تقدم على رأس جيش جديد لاحتلال بغداد، وشجعه على ذلك انشغال الدولة العثمانية في تلك الآونة بتمرد الانكشارية الذي أطاح بالسلطان(عثمان الثاني)وتصيب السلطان الجديد(مراد الرابع.)

استعد بكر صوباشي للمقاومة، وحاصرت القوات الايرانية بغداد في ربيع الاول ١٠٣٣ هـ /١٦٢٣ م . واستمر الحصار نحو ثلاثة اشهر عانى منه الاهالي كوارث واهوالا حتى اضطر الناس الى اكل لحوم الكلاب، وحلت النكبة حينما سلم محمد بن بكر صوباشي القلعة التي اوكل اليه الدفاع عنها، مدفوعا بالرغبة في الحكم تحت فضل أي سيد أو ليأسه من الاستمرار في الدفاع، كما يقول بعض المؤرخين . فتدفقت قوات الشاه الى بغداد في ٥ صفر ١٠٣٣ هـ ٢٨ /تشرين الثاني ١٦٢٣ م وذبح الجيش الصفوي كل من كان يصادفه من المشتبه بهم من انصار بكر، وقبض على الآلاف .وينقل المؤرخ نظمي زادة عن أبيه الذي كان شاهد عيان لدخول الفرس بأن(من سلم من القتل لم يسلم من التعذيب)، وقبض الشاه على بكر، وبعد ان عذبه بوحشية أمر بقتله ، ولكنه كرم ولده الخائن باغداقه الهدايا عليه، وبعد ان أمضى الشاه عباس في بغداد والمناطق التي استولى عليها من العراق حوالي اربعة أشهر، غادرها إلى بلاده(بعدما ترك بغداد يلمها الخراب والدمار .)وعين على بغداد حاكم همدان صفي قلي خان .وهكذا انتهت حركة بكر صوباشي بخروج بغداد من ايدي العثمانيين واحتلال الصفويين لها، وقدر للمدينة أن تعاني مجددا ألوانا من المآسي والفواجع.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة السابعة باللغة العربية: العثمانيون يستعيدون حكم العراق

اسم المحاضرة السابعة باللغة الإنكليزية : The Ottomans restore the rule of Iraq

العثمانيون يستعيدون حكم العراق

محاولات العثمانيين لاستعادة العراق:

كان سقوط بغداد في ايدي الصفويين أمر في غاية الخطورة بالنسبة الى الدولة العثمانية، وعلى الرغم من مرحلة الضعف التي كانت تمر بها آنذاك، فانها لم تتوان عن محاولة(استعادة أنبل مدن آسيا .) فأرسلت عام ١٠٣٥ هـ /١٦٢٠ م حملة بقيادة الصدر الأعظم حافظ باشا فتقدم وحاصر بغداد ستة أشهر، ولم ينجح في دخولها .فتقدم الشاه عباس على أ رس جيشه للاحتفاظ بالمدينة، ووقعت اشتباكات بين الجيشين العثماني والصفوي .ولكن طول مدة الحصار من جهة، وما كانت تعانيه القوات العثمانية من نقص في المؤن والذخيرة والخيول من جهة اخرى، دفعت بالانكشارية إلى التمرد على الصدر الأعظم، مما اجبره على الانسحاب.

ثم ارسلت الدولة العثمانية حملة ثانية بقيادة(خسرو باشا)في ١٠٣٩ هـ/١٦٢٩-١٦٣٠ م حاصرت بغداد اربعين يوما، انسحب بعدها خسرو الى الموصل. دون أن يحقق غرضة ولما ولى السلطان مراد الرابع نجح في القضاء على روح التسيب والفتنة في الدولة، واعاد القانون والانضباط واهتم باستعادة بغداد واعد حملة استعد لها استعدادا دقيقا.

حملة مراد الرابع واحتلال بغداد :

تحرك السلطان على أرس قواته من اسكودار في شوال سنة ١٠٤٧ هـ/ ١٦٣٨م، والتحقت بالجيش خلال التقدم قوات من عدد من مدن الاناضول اضافة الى عدد كبير من القبائل العربية بقيادة(امير الصحراء)ابن ابي ريشة، وقام رجال هذه القبائل بدور مهم في تمهيد الطريق أمام قوات السلطان وتزويدها بالمؤن ايام حصارها لبغداد .وفي منتصف تشرين الثاني ١٦٣٨م ، وصلت القوات العثمانية قرب بغداد وأقيم معسكر السلطان بالقرب من الاعظمية. وكانت بغداد تقوم على الجانب الشرقي من دجلة، ويحيط بالمدينة سور طوله ثلاثة أميال مبني بالآجر ويكتنفه خندق عرضه ستون ذراعا يسده نهر دجلة بالمياه،

وكان قسم من السور المحيط بالجهة الشرقية من المدينة دائريا تقريبا ويبلغ ارتفاعه ما بين ١٠ الى ١٥ذراعا .وتنتصب في الزوايا الرئيسية من السور ابراج كبيرة اقيمت فيها المدافع، في حين تقوم ابراج أصغر تقع على مسافات قصيرة فيما بينها يبلغ عددها مائة وثانية عشر برجة في جوانب السور المواجهة للبر وخمسة وأربعين برجا تشرف على النهر، وكان بين كل برج وآخر خمسون فتحة لإطلاق نيران المدافع والبنادق، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة .وفي الزاوية الشمالية الغربية من السور تنتصب القلعة الداخلة التي يطوقها حائط مفرد يبدأ من باب المعظم الى دجلة، ترتفع عليه ابراج صغيرة نشبت فيها المدافع، ويحدق بسورها خندق ضيق.

وهذه القلعة تضم الثكنات ومخازن الذخيرة والمؤن بالاضافة الى الخزينة، والى جوارها من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي، وفي الأسوار ابواب اربعة. ثلاثة منها من جهة البر وهي :باب المعظم في الشمال، والباب المظلم او باب كلواذى في الجنوب، والباب الابيض او الباب الوسطاني في الشرق، اما الباب الرابع فهو يواجه النهر ويسمى باب الجسر .والأخير يربط ما بين بغداد والجهة المقابلة من دجلة حيث تنصب قلعة الطيور.

كان عدد أفراد الحامية الايرانية يزيد على ٣٠٠٠٠ رجل معززة بالسلاح والذخيرة .وبعد حصار دام أربعين يوما تمكنت القوات العثمانية من السيطرة على الابراج كافة، فطلب التسليم وايقاف القتال ووافق السلطان على الطلب، وتم الاتفاق على انهاء المقاومة وانسحاب الإيرانيين من بغداد .ولكن بعض المدافعين رفضوا الانصياع لأمر التسليم فاستمرت الاشتباكات وعمت الفوضى وحوادث النهب والقتل، وكانت خسائر الجانبين كبيرة جدا، وقتل معظم رجال الحامية، ولما توقفت الاشتباكات أصدر السلطان اوامره بالمحافظة على حياة السكان المدنيين وعدم التعرض لممتلكاتهم .ثم اتخذ الإجراءات لتنظيم ادارة بغداد ، فعين(كجك حسن)أغا الانكشارية واليا كما ترك حامية من ٨٠٠٠ انكشاري بقيادة(بكتاش اغا)وأمر الصدر الأعظم بإعادة بناء الأسوار والاستحكامات .ثم غادر بغداد عائدة الى القسطنطينية.

تثبيت حدود العراق الشرقية :

وأمضى الصدر الاعظم مصطفى باشا قرابة الشهرين في بغداد اهتم خلالها بإعادة بناء التحصينات، وبناء ما تهدم من المنازل والاسواق، وإعادة زرع البساتين. وقرر تأمين بغداد من الشرق، فتحرك على رأس قواته متجها شرقا ، ثم وصل اليه مبعوث من طالبا انهاء العداوات .ووافق الصدر الأعظم على المرض وارسل رسالة إلى الشاه طالبا منه ان يرسل شخصا مخولا بصلاحية مطلقة لتحقيق شروط السلام بين الدولتين .وعين الشاه مبعوثا لهذه الغاية وجرت المفاوضات بين الجانبين في زهاب، وفي ١٤محرم ١٠٤٩ هـ/ ١٧ مايس ١٦٣٩ م تم التوصل الى معاهدة لتحديد الحدود، وتعد هذه المعاهدة اكمل المعاهدات التي عقدت بين الجانبين العثماني والايراني حتى ذلك الوقت، وقد فات تلك الحدود، على الرغم من عدم دقة رسمها، ثابتة تقريبا، لأكثر من قرنين من الزمن .وشكلت معاهدة زهاب هذه، نقطة الارتكاز حتى منتصف القرن التاسع عشر، عندما قامت لجان مشتركة على رسم الحدود.

ومما جاء في تلك المعاهدة ان تظل ضمن ولاية بغداد جنان و بدرة ومندلي ودرتنك ودرنة والسهول الواقعة بين مندلي ودرتنك .كما تبقى اجزاء من هارونية التي تقطن فيها قبائل الجاف وضياء الدين ضمن حدود الولاية .وتهدم قلعة زنجير، والقرى الواقعة غربها تابعة للسلطان، أما القرى الواقعة شرقها فتابعة للشاه .وخط الحدود في شهرزور هو الشعب المؤدي اليها .وتظل تابعة للسلطان قلعة قزلجة مع توابعها.

ويتعهد الشاه بعدم التحرش والتعرض لقلاع اخسخة وقارص وشهرزور وبغداد والبصرة والمناطق الواقعة ضمن الحدود، وبعدم تشجيع حركات التمرد ضمن هذه الأماكن.

الأحوال العامة :

سببت سنوات الاحتلال الصفوي وحروب الاسترداد العثمانية الكثير من الدمار والخراب في بغداد .وقد تميز تاريخ ولاية بغداد حتى اوائل القرن الثامن عشر بالاضطراب وكثرة تغيير الولاة، اذ حكم في الحقبة ١٠٤٩ هـ ١٦٣٩ م ١١١٦ هـ ١٧٠٤م تسعة وثلاثون والياً، لم يترك واحد منهم عند عزله او نقله أثراً يذكر باستثناء اربعة قام احدهم ببناء ثلاثة أبراج لسور بغداد وجامع الأزبك، وبني الثاني جامع الخاصكي، وقام الثالث بتطهير نهر الدجيل، اما الرابع فبنى مدرسة قرب جامع القمرية .وقد ساعدت سرعة تغيير الولاة على خلق حالة عدم الاستقرار.

ومن المظاهر الأخرى لهذا العهد، كثرة تمردات الانكشارية، واضطراب حالة الأمن خارج اسوار المدن وادى ذلك إلى نتائج اقتصادية سيئة في الزراعة والتجارة. ورافق ذلك كثرة الاوبئة والفيضانات والقحط التي أسهمت في تعطيل الفعاليات البشرية .وبلغ التدهور الاقتصادي درجة بحيث أن علي باشا والي بغداد سنة١١١٥ هـ /١٧٠٣ م ارسل في طلب ٤٠٠ كيس اقجة لدفع رواتب الجند المحليين بسبب عجز خزينة الولاية .وذكر الرحالة تافر نييه بغداد في منتصف القرن السابع عشر آن عدد جوامع بغداد عندما ا زرها كانت خمسة، اثنان منها حسنا العمارة، وانه كانت فيها عشرة خانات كلها غير عامرة الا اثنين منها كانا أحسن من سائرها(والمدينة من حيث الحكم العام غير عامرة خالية من مظاهر الجمال عدا الأسواق المسقفة)..

اما ولاية البصرة، فقد انتهى حكم أسرة افراسياب في ١٠٨٠ هـ/ ١٦٦٩ م أثر حملة قادها والي بغداد قرة مصطفى وهرب على اثرها آخر امرائها حسين افراسياب، وبذلك ربطت الولاية بشكل مباشر بالدولة، ولكن الولاية كانت أوضاعها غير مستقرة وعانت موجات من الفوضى والاضطراب سببتها ثورات العشائر.

وقد تمكن مانع بن مغامس شيخ قبائل المنتفق من السيطرة على البصرة عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤ م ولم يتمكن والي بغداد من استعادتها، واعقب ذلك دخول حاكم الحويزة المدينة وضمها الى ممتلكاته عندما اعيدت المدينة للسيطرة العثمانية أثر حملة قام بها والي بغداد، بعد ان تقوى بنجدات عثمانية ارسلت الى العراق.

اما ولاية الموصل فقد استطاع الشاه عباس أثر احتلاله لبغداد في ١٦٢٣م من غزوها ومد سلطانه الى كركوك، ولكن الاحتلال الصفوي لم يدم طويلا، اذ تمكنت قوة عثمانية صغيرة يقودها(كوجك احمد باشا)من طرد الحاكم الصفوي(قاسم خان)، كما طردت القوات الصفوية من كركوك في مايس ١٦٢٠ م .

وبصورة عامة، كانت احوال ولاية الموصل أكثر استقراراً من أوضاع الولايات العراقية الاخرى، وقد ساعد ذلك على نشاط الحركة التجارية فيها بحيث فاقت مدن العراق الاخرى.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الثامنة باللغة العربية: مقدمات قيام حكم ذاتي قوي في العراق

اسم المحاضرة الثامنة باللغة الإنكليزية : Preliminaries for a strong self-rule in Iraq

مقدمات قيام حكم ذاتي قوي في العراق :

حصل تحسن ظاهر على ولاية بغداد امتدت آثاره على الولايات الاخرى في النصف الأول من القرن الثامن عشر عندما تولى حسن باشا ولاية بغداد في ١٧٠٤ ، وقد اثبت انه اكفأ الشخصيات في النواحي السياسية والعسكرية والادارية، وشكلت مدة حكمه الطويلة نسبيا (١١١ – ١١٣٦٦ هـ/ ١٧٠٤–١٧٢٣) وامتدادها في عهد ولده احمد باشا (١١٦٠ – ١١٣٦ هـ /١٧٢٣ – ١٧٤٧ م) نقطة تحول في تاريخ العراق.

وكان هذا الوالي قد ولي قبل ذلك قونية وحلب والرها وديار بكر واكتسب خبرة ادارية وعسكرية كبيرة وطبق لدى وسوله بغداد النظام الذي عرفه عن كثب حينما عاش في سراي العاصمة العثمانية حيث يستخدم الشراكسة الارقاء الذين يجلبون اطفالا ويدربون تدريبة خاصة ليصبحوا موظفين في حكومة السلطان، فاستقدم فتيانا من بلاد الكرج وقفقاسيا ودربهم لهذا الغرض كمماليك في مدرسة أقامها وعلمهم فنون القتال وتعاليم الدين الاسلامي .وبلغ عددهم في البدء مائتين، وعهد اليهم بعد تخرجهم بالمناصب الادارية والعسكرية العليا في الولاية وبالتدريج أصبح هؤلاء قوة هامة فاقت قوة الانكشارية والبدء عرفت بالمماليك(بالتركية :كوله مند)، وجدد حسن باشا الديوان الذي ضم الى جانب الوالي كلا من الكهية والقاضي والدفتردار والخزنة دار، وتقرب حسن باشا من الأهلين بإلغائه الضرائب على المواد الغذائية وعلى الاخشاب المستوردة إلى بغداد، وقام بإصلاحات عمرانية من ابرزها تجديد جامع السراي(جامع جديد باشا)وتعمير خانات بغداد وبناء خان جديد بين النجف وكربلاء، كما أصلح عدد من القناطر .وشن حملة كبرى ضد قبائل المنتفق، وتمكن من اخضاعها بعد ف ا رر شيخها مغامس الى الحويزة .ثم ربط حكم البصرة به فتحولت الى متسلمية تابعة لولاية بغداد .كما تسكن بجهود دبلوماسية وعسكرية من القضاء على حركات العشائر الكردية وسيطر على منطقة سنجار التي ربطت ادارتها ببغداد.

نجح حسن باشا بعد جهود مضنية في خلق حكم مركزي مستقر بعد أن هدأت حركات العشائر وقضى على فوضى الانكشارية .وادى ذلك الى تأمين الطرق التجارية وانتعاش الحياة الز ا رعية لتوجه افراد القبائل الى الاستقرار والزراعة.

وفي أواخر حكم ولاية حسن باشا تجدد الحركات على الحدود العراقية– الايرانية في اعقاب سيطرة قبائل الأفغان بقيادة(مير محمود)على بلاد فارس وانهائها موقتا الحكم الصفوي في ١١٣٥ هـ / ١٧٢٢ م، ونظراً لتزايد خطر الافغانيين ورغبة الدولة العثمانية في الحيلولة دون المراد قيصر روسيا بطرس الأكبر في احتلال مناطق ايران الشمالية، فقد تدخل العثمانيون في بلاد الكرج، وتوصلوا إلى اتفاق مع روسيا في ١١٣٧ هـ /١٧٢٤ م باقتسام شمالي ايران كما ان القوات العثمانية توغلت بقيادة حسن باشا في غرب اي ا رن واحتلت كرمنشاه .

وفي خلال هذه الحملة توفي حسن باشا وهو في طريقه الى همذان في (١١٣٦ هـ /١٧٢٣ م)فخلفه ابنه أحمد باشا في ولاية بغداد وقيادة الجيش العثماني. كان عهد احمد باشا استمراراً لعهد ابيه، وسار على سياسته، في اقرار الاستقرار والأمن وتميز عهده باحتدام الصراع العثماني الايراني، فقضى شطراً كبيراً من سني حكمه في صد التدخلات الإيرانية في شؤون العراق، مما أدى الى عدم توفر الوقت المناسب للقيام بأعمال عمرانية.

بدأ احمد باشا عهده باحتلال همذان في ١١٣٧ هـ ١٧٢٤ /م وبعد سنتين اندلعت الحرب بين العثمانيين والشاه(اشرف الافغاني)ثم عقد الصلح بين الطرفين في ١١٤٠ هـ /١٧٢٧ م اعترف فيه اشرف للعثمانيين بالسيطرة على المناطق الغربية والشمالية الغربية من ايران.

غزوات نادر شاه للعراق :

كان ظهور نادر قلي، الذي عرف فيما بعد بنادر شاه، في ايران ايذانا بتحولات عسكرية وسياسية مهمة في المنطقة، عانى منها العراق والخليج العربي الكثير . فلقد استطاع هذا القائد المغامر الذي ينتمي إلى قبيلة افشار التركمانية أن يستغل حالة الفوضى والتمزق التي سادت ايران على أثر الغزو الافغاني والروسي والعثماني، ليوسع من نفوذه بصفته زعيما لقبيلته من ناحية، وحاكما على احدى مدن خراسان، فادعى انه انما يتوسع باسم سيده طهماسب مرزا المدعي بالعرش الصفوي، فضم خراسان وبلاد الأفغان، مما دعي بالشاه طهماسب الى أن يجعله قائدا عاما لقواته ومنحه لقب (طهماسب قولي خان)أي عبد طهماسب، وتمكن نادر بعد هذا من الحاق الهزيمة بقوات الافغانيين كان يتزعمها اشرف خان في معركة عند نهر مهماندوست سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥ م ، فتخلى الافغان على أثرها عن العاصمة اصفهان منسحبين الى شيراز ودخل نادر بقواته اصفهان واعلن عودة الحكم

الصفوي الى ايران، ثم تحرك بعدها لملاحقة القوات الافغانية في جنوبي البلاد، وفي ناحية شمال شرق شيراز حدث الصدام المتوقع بين قوات الطرفين، فكان النصر حليفاً لنادر، وتقهقر الافغان نحو بلادهم الأصلية بعد أن فقدوا معظم قواتهم، وقائدهم اشرف خان نفسه.

وبعد هزيمة الأفغان وسقوط اصفهان، وجه نادر اهتمامه صوب العثمانيين، الذين كانوا يسيطرون على مناطق واسعة من غربي اي ا رن، فقام بمهاجمة الحامية العثمانية في نهاوند، واحتلال المدينة سنة ١١٤٢ هـ /١٧٣٠ م، ثم تقدم واستولى على همذان واردلان وكرمنشاه، وعلى مناطق الشمال وعاصمتها تبريز .وانكر المعاهدة الموقعة من الصفويين والعثمانيين، وعين نفسه وصية على الطفل عباس ميرزا، بعد ان نحى اباه طهماسب عن العرش وتسلم هو مقاليد السلطة الفعلية في البلاد.

وسرعان ما كشفت اعمال نادر التالية عن حقيقة نواياه التوسعية، واطماعه الرامية نحو احتلال العراق والسيطرة على مقدراته السياسية والاقتصادية، متذرعاً بعلل واهية، كلما أعوزته الظروف ذلك .ففي خريف سنة ١١٤٥ هـ/ ١٧٣٢ م بدأ نادر شاه زحفه من العاصمة اصفهان باتجاه الحدود العراقية، وبعث برسالة الى أحمد باشا يتوعده فيها وينذره بانه ا زحف نحو بغداد لفتحها حيث خاطبه قائلا :

(نحن سائرون حالا على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل النستريح في ظل اسوارها) .

فأسرع أحمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنة ومندلي وبدرة وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين، ثم أصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد. وكانت القوات الايرانية تقدر بمائة ألف جندي، وقد واجهت مقاومة عنيفة عند توغلها في الاراضي العراقية أجبرتها على التقهقر في عدة مناطق.

وكانت تلك القوات قد توزعت عند دخولها الأراضي العراقية ضمن عدة محاور فتقدم قسم منها باتجاه كركوك اربيل وقسم توجه نحو الموصل .أما القوة الرئيسة فواصلت زحفها نحو بغداد، وقد أضطرت القوات في محوري كركوك – اربيل– والموصل الى التقهقر بعد أن تكبدت خسائر فادحة وقتل قائد القوات المهاجمة للموصل.

وفي أواخر رجب ١١٤٥ هـ /كانون الأول ١٧٣٢ م ، بدأ نادر قلي بفرض حصاره على الجانب الشرقي من بغداد واستعان بمهندس أوربي يرافقه في حملته، في انشاء جسر عائم من جذوع النخيل،

على بعد عدة أميال من شمال بغداد، وذلك لتمكين القوات الايرانية من العبور الى الجانب الغربي من نهر دجلة، واذ ذاك أمر أحمد باشا سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام إلى الجانب الشرقي ليكونوا في حماية سورها المنيع، وفي أثناء ذلك قامت وارتال من القوات الايرانية قد بعثها نادر قلي باحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة(الديوانية.)

وبالرغم من الضيق الذي اصبح عليه السكان في بغداد بسبب الحصار الذي فرض عليها بحيث أخذت ويلات المجاعة شكلا مروعاً فأكل الناس الحمير والكلاب والقطط وانتشرت الاوبئة، وبلغت الحالة كما يصفها – الشيخ عبدالرحمن السويدي– أنه أثناء خروجه من المسجد بعد انتهاء صلاة الجمعة، شاهد في طريقه امراة منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع من لحمه وتضعه في حجرها، بالرغم من ذلك فان القيادة الايرانية حين دعت بغداد للاستسلام، تلقت خطابا شديد اللهجة من وجهائها وعلمائها جاء فيه(:نحن لا نسلم حجرة من احجار بغداد حتى نقبر في مكاننا هذا، وان ذخيرتنا كافية ومددنا كثيرة العدد متواصلة المدد، ولم يكن توقعنا عن مناوشتكم في بعض الأيام دون حكمة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.)

وفي اليوم السادس من صفر ١١٤٦ هـ /١٩ تموز ١٧٣٣ م دارت معركة حامية بالقرب من الدجيل أستمرت تسع ساعات متواصلة بين الجيش العثماني والجيش الايراني وانتهت بهزيمة الايرانيين وتكبدهم خسائر فادحة تقدر بثلاثين الف قتيل وثلاثة آلاف أسير، كما فقدوا مدفعيتهم وذخائرهم، وهرب قائدهم نادر قلي، الذي اصبح شاها فيما بعد، ومعه فلول قواته المنهزمة الى الأراضي الاي رانية .ويقال بأن الغنائم التي جمعت من المعركة، تكفي لتحصين وتسليح مدينة جديدة اما بغداد التي مضى على حصارها سبعة شهور، فان حاميتها قامت عند وصول أنباء الانتصار بمهاجمة الفوة الإيرانية المرابطة عند اسوارها .فقتل معظم أفرادها وهرب الباقون.

وبعد أقل من ثلاثة اشهر، عاودت ايران عدوانها على الأراضي العراقية في محاولة يائسة أخرى، لإزلة الهزيمة التي لحقت بها من قبل .فعبرت قواتها الحدود العراقية، وتقدمت ارتال منها باتجاه محور كركوك– أربيل وعند وصولها سهل ليلان جنوبي شرقي كركوك في الخامس عشر من جمادى الاولى ١١٤٦ هـ/ ٢٤ تشرين الأول ١٧٣٣ م، واجهت مقاومة عنيفة ثم دارت معركة حامية عند مضيق(آق دربند)، أسفرت عن تكبد الطرفين خسائر فادحة .وقد أضطر نادر الى طلب الصلح

لاسيما أخباراً عن تفاقم الاضطرابات في مختلف انحاء ايران ، وقيام(محمد خان بلوج)حاكم أقليم فارس بثورة للإطاحة بحكمه.

وبعد مفاوضات استمرت مدة تزيد على سبعة أيام، عقدت معاهدة صلح في اليوم الحادي عشر من رجب ١١٤٦ هـ/ ١٩ كانون الأول ١٧٣٣ م، عدت فيها الحدود بين الدولتين هي التي خططتها معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ غير أن اطماع ايران لم تحل دونها أية معاهدة، اذ عاودت عدوانها على العراق مرة أخرى، وتركز في هذه المرة على البصرة .ففي نيسان ١١٤٨ هـ/ ١٧٣٥ م دخلت الى شط العرب ثلاث سفن إيرانية من نوع(الغراب)وخمسون سفينة كبيرة متنوع(الترانكي)، بالإضافة الى قوة ايرانية برية مؤلفة من ثمانين ألف جندي، بدأت بالتقدم أعلى النهر، وعند الجزء الضيق من شط العرب :أسفل البصرة بخمسة عشر ميلا، دار قتال لمدة ثلاثة ايام انتهى بانسحاب القوات المعتدية.

ويذكر جون، غوردن لوريمر احد المختصين بتاريخ الخليج العربي، أن نادر شاه طلب من الانكليز أن يساعدوه في عدوانه على البصرة، غير أن سلطات بومباي أصدرت أوامر حاسمة لممثلها في بندر عباس بالا يضع أية سفينة من السفن الحربية العائدة الى شركة الهند الشرقية في خدمته أو تحت تصرفه ، إذ كانت تخشى من تعرض مصالحها الى الخطر.

عدوان سنة ١٧٤٣ وحصار المدن العراقية :

وبعد سبع سنوات شنت ايران هجوما واسعا على العراق، وعبرت قواتها بقيادة الشاه نفسه، وكانت تقدر بمائة وسبعين ألف جندي، الحدود من جهة مندلي وشهرزور، وتقدمت باتجاه محور كركوك اربيل .

ولما كان هدف القوات الايرانية– الاستيلاء على بغداد، فان خطتها كانت ترمي الى السيطرة على الموصل أولا، وذلك لقطع خطوط المواصلات بين القيادة العثمانية وبغداد مما يسهل احتلالها من قبلهم، لذلك واصلت تلك القوات تقدمها نحو الموصل، التي كانت قد تسربت اليها أنباء من القوات الايرانية نفسها عن الخطة المبينة، فاستعدت للدفاع عن كيانها بحماس شعبي منقطع النظير، وهيأت الخنادق واصلحت الأجزاء المتصدعة من سور المدينة، وحصنت القلاع بالمدافع ، وتجهزت بالذخيرة اللازمة.

وقد بعث نادر شاه، وهو في طريق تقدمه نحو الموصل : بخطاب يحذر فيه أهاليها من مغبة المقاومة ويدعوهم إلى الاستسلام، ولكن الموصل اجابت بخطاب شديد اللهجة، بعد أن شهدت

اجتماعا شعبيا كبيراً، وقد جاء في الرد(:فما وعيدكم عندنا الا كصرير باب، أو كما طن في لوح الهجير ذباب، أفرأيتم أن القصاب يقهره كثرة الغنم، أو الاسد الغشمشم يدهشه تراكم النعم، كلا ستعلمون ثم كلا ستعلمون الرقاع بالقراع، ونحن الاسود الضارية، والسباع الكواسر العادية، أسيافنا صقيلة، وسطوتنا ثقيلة .وحلو منا رزينة، وقلوبنا كالحديد متينة، وبلدتنا بحمد الله حصينة .. فلا سمعاً لكم ولا طاعة وأهلا بالسعادة والشهادة هذه الساعة، فما بيننا الا ما صنع الحداد من سيوف حداد ورماح مداد.)

وفي ٢١ رجب ١١٥٦ هـ/ ١٠ ايلول ١٧٤٣ م وصلت قوات ايرانية الى قرية(يارمجة)شرق دجلة على بعد زهاء خمسة كيلو مترات من مدينة الموصل .فاسرع الوالي حسين باشا الجليلي بارسال ثلة من الخيالة يقدر عددها بثمانمائة مقاتل للتصدي لها، و بعد قتال عنيف تمكنت هذه القوة من الانسحاب الى المدينة بالرغم من محاولة الايرانيين قطع طريق عودتها.

وبعد اربعة ايام وصل الشاه وقواه الى(يارمجة)، فعسكر فيها .وأمر بنصب المعابر عبر دجلة، وارسل قسما من قواته إلى الجانب الغربي من النهر، كي يكملوا الالتفاف حول المدينة .كما بعث رسولا الى الباشا الجليلي محذراً اياه من بطشه– على حد زعمه، فجاءه الجواب(:وما بيننا وبينك الا السيف واذا أرسلت سفيراً آخر نرجعه اليك بلا رأس.)

ثم احاط الايرانيون بالمدينة تماما، واقاموا المتاريس والاستحكامات، وشيدوا اثنى عشر استحكاما تحتمي بها مدفعيتهم التي كانت تتكون من) ١٦٠ (مدفعاً و (٢٣٠) مرمية هاون .وقد فتحت هذه المدافع نيرانها في ٦ شعبان ١١٥٦ هـ/ ٢٥ايلول ١٧٤٣ م ولمدة ثمانية أيام بلياليها دون توقف، وتصدع السور في عدة أماكن، ولكن المدافعين الذين كانوا مسلحين بالإيمان والشجاعة، كانوا دائما يتمكنون من اصلاح الثغرات قبل أن يجد الايرانيون سبيلا إلى النفاذ خلالها .وتصف المصادر المحلية المقاومة الباسلة والرائعة التي أبداها أهالي الموصل، وكيف أن قنابل المدفعية الايرانية التي (كانت نهاراً تتساقط على الأسوار كالمطر، وليلا تتناثر كنجوم من اديم السماء)لم تكن تؤثر في عزيمتهم وصمودهم وهذا ما جعل نادر شاه ينقل مقر قيادته من(يارمجة)إلى موقع قريب من المدينة، ليشرف بنفسه على القتال، فأمر بقصف مدفعي شديد لبرج(باش طابية)في شمال الموصل، حيث مقر الحكومة، أدى الى تهدم جانب من البرج .لكن المجهودات العظيمة التي احكمت البرج من

جديد، وواجهت القوات الايرانية ضربات ا ردعة وقوية عندما حاولت النفاذ إلى المدينة، وتكبدت عددا كبيراً من القتلى.

وجد نادر شاه ثبات اهل الموصل وصمودهم، وتكبد قواته الكثير من الخسائر ونفاذ مؤنه، يئس من الاستيلاء على المدينة، وأدرك عدم جدوى القتال، فأضطر الى ان يطلب الصلح. ويذكر نيبور أن حصار الموصل أظهر ان الايرانيين لا يحسنون فن المدفعية، وانهم لا يعرفون شيئا من فنون حصار القلاع. وفي ٤ رمضان ١١٥٦ هـ/ ٢٢ تشرين الأول ١٧٤٣ م، انسحب نادر شاه بقواته الى الوسط بعد حصار للموصل دام اكثر من أربعين يوما، تعرضت خلالها قرى الموصل الى التخريب بشكل ليس له نظير على يد القوات الايرانية، كما نهبت وأحرقت اديرة عديدة.

ان صمود الموصل أفشل جميع مخططات الشاه التوسعية، خاصة وأن قواته التي كان قد بعثها الى بغداد والبصرة لم تتمكن أيضا من تحقيق اهدافها، بالرغم من أعمال القتل والتدمير التي قامت بها في معظم قرى هاتين المدينتين ونواحيهما. ولذلك عقد الشاه صلحا والي بغداد أحمد باشا، الذي أشترط عليه الانسحاب الفوري من الأراضي العراقية. وواجهت البصرة خلال الحصار الايراني للموصل، عدوان ايرانيا اذ قامت في,٧ رجب ١١٥٦ هـ/ ٢٨ اب ١٧٤٣ م قوات ايرانية تبلغ اكثر من اثني عشر ألف جندي بهاجمتها وفرض الحصار عليها، وبعث قائدها بخطاب الى متسلم البصرة يطلب فيه تسليم المدينة .لكن المتسلم بعد، أن تشاور مع أعيان أهل البصرة، رفض هذا الطلب، وجاء في الخطاب الذي بعثه الى قائد القوات الايرانية ...(وها نحن لملاقاة من ا رمنا بسوء متأهبون، وبالله تعالى على من بغي علينا مستعينون، ولنصرة الذي يؤيده من يشاء منتظرون، لا نرهب من الخوف لان عندنا من المقرر المعلوم، أنه لم يمت أحد قبل انقضاء اجله المحتوم، وانه من فاز منا بالشهادة فقد نال السعادة، ورزق الحسنى وزيادة .وأن النصر ليس بكثرة الجنود والعدد، ولا يجمع الخيول السورية والعدد، بل كما قال الله تعالى في محكم القرآن العظيم(وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم)وان الله عز سلطانه قد اظهر كنز سره المصون بقوله تعالى(:وقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون.)

غير أن القائد الايراني بعث بخطاب آخر يكرر فيه طلب تسليم المدينة لقواته المعتدية، ولكن جاء الرد الابي بتصميم أهالي البصرة على الذود عن مدينتهم مهما كان الثمن، ومما ورد فيه(ولم يكن بنا

ولله الحمد عجز ولا تعب، ولا وهن ولا نصب، وليس علينا قلة من ((الجبخانة))والذخائر ولا المقاتلة والعساكر، ومعلومكم ان قتيلنا شهيد وقتيل من اعتدى علينا في عذاب شديد، لقوله تعالى في كتابه المبين(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)، وتشهد لذلك التي ترمي من مدافعكم فهي علينا بردا وسلاما.)

لق .فشلت القوات الغازية في عدوانها على البصرة طيلة حقبة الحصار الذي ضربته على المدينة، والذي دام أكثر من ثلاثة أشهر، وبالرغم من عدم تكافؤ الأسلحة بين الجانبين، حتى اضطرت القوات الايرانية في آخر الامر الى الانسحاب في السابع والعشرين من تشرين الثاني ١٧٤٣ م. وخلال تلك العمليات العسكرية، ارتكبت القوات الايرانية الكثير من المذابح الرهيبة في عدد من القرى الواقعة على ضفة شط العرب، لا سيما في قرية(السبيليات)، كما لم تنج مدينة الزبير من الغزو والتخريب والعبث قبور الأموات وهدم بعض الأضرحة.

وقد ادى انشغال اي ا رن بمشاكلها الداخلية، على اثر مصرع نادر شاه في سنة١١٦٠هـ /١٧٤٧ م الذي كان ايذانا بانتشار الفوضى في جميع أرجاء البلاد، حيث بدأت صراعات دموية على العرش، الى ان يكون العراق في مأمن من الغزو الايراني مدة عشر سنوات .ثم برزت مرة اخرى فكرة غزو العراق عن عندما تولى(كريم خان الزند)مقاليد الحكم في ايران سنة ١٧٥٧ م.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة التاسعة باللغة العربية: مدن العراق كقلاع عسكرية

اسم المحاضرة التاسعة باللغة الإنكليزية : Iraq's cities as military fortresses

مدن العراق كقلاع عسكرية :

لم يكن للعثمانيين، عند دخولهم العراق، من الرصيد الحضاري ما يمكن أن يقدموه لحياة مدنية اصابها تدهور شديد، متنوع الجوانب، منذ عدة قرون .وكان الحكم العثماني يقوم بصفة عامة على قاعدة ابقاء الأوضاع على ما كانت عليه من قبل، دون تغيير حقيقي في جوهر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة. وتكشف أعمال السلاطين العثمانيين الأوائل في العراق عن أن نظرتهم إلى المدينة العراقية كانت تقوم على اساس انها ليست الا حصنا او قلعة مهمتها الرئيسة حفظ الأراضي التابعة للسلطان، ومركزاً لجمع الضرائب من تلك الأراضي وارسالها الى السلطة المركزية في القسطنطينية، وقد استلزمت هذه النظرة من الدولة العثمانية أن تمضي نظراً لإمكانيتها ومركزها ازاء القوة السياسية المتاخمة للعراق في سياسة اقرار الأوضاع القائمة فعلاً، محاولة الاستفادة من هذا الواقع الى اقصى حد ممكن، وعلى هذا فقد ترك السلطان سليم الأول مدن العراق الشمالية بيد الأسر والسلالات القبلية الموجودة في عهده، ولم يغير السلطان سليمان القانوني، عند فتح العراق سنة ١٥٣٤م، شيئا من هذه القاعدة، فاستمرت زعامات محلية وقبلية تسيطر على المدن الع ا رقية الواقعة في مناطق نفوذها.

وكان من نتائج فقدان الأمن، وشيوع الاضطرابات في النظم الادارية منذ انهيار الدولة العباسية، وما خلفته تلك الحروب الوحشية التي شهدتها مدن العراق وقراه على ايدي جيوش تيمور لنك وما أعقبه من غزوات القره قوينليين والآق قوينليين والصفويين، اضافة الى عجز القوة القبلية والريفية عن تشكيل حكومات مدنية مستقرة، ان تدهورت المدينة نفسها، فأهملت الأراضي الريفية الواقعة حولها، وشبكات الانهار والمصارف اللازمة للري والزراعة، فتعاظمت اخطار فيضانات الأنهار وحدثت المجاعات التي انتهت بعزل المدن عن بعضها وعن القرى المجاورة، وتدميرها، أو هجر سكانها منها تدريجيا.

ومن أهم المدن التي اندثرت في أوائل العصر العثماني، مدينة واسط الشهيرة ذات التراث الزاهر في القرون الوسطى، حيث أدى اهمال شؤون الري الى ابتعاد «الرماحية » مجرى دجلة عن المدينة، وجفاف مجراه القديم، ومثل ذلك حدث المدينة القريبة من النجف، وهي من المدن القديمة التي يرتقي

تاريخ انشائها إلى القرن الرابع عشر، فقد ادى اهمال العناية في مجرى الفرات، ان تحول مجرى جديد، فاضطر سكان الرماحية الى هجر مدينتهم، حتى غاب ذكرها تماما ثم زالت من الوجود.

ثم ان عوامل أخرى، كان اهمها النزاعات القبلية وتعرض المنطقة الى غزوات المعتدين المستمرة ادت الى انحطاط مدن اخرى كان لها شأن في العصور السالمية التي بلغ من تدهور أحوالها أنها أمست في القرن « اربل » الزاهرة، من أبرزها مدينة السادس عشر بليدة صغيرة يتنازعها حكام الامارات العشائرية القاطنة في المنطقة،ولحق التدمير مدن التخوم الع ا رقية الشرقية نتيجة لتوالي الاعتداءات الايرانية المسلحة، فاندثرت مدينة(حلوان)الشهيرة وتضاءل شأن البنديجيين(مندلي)ومدن منطقة (النهروان)التي طالما اشتهرت بالخصب والثروة الزراعية.

وامتد الخراب الى مدن العراق الرئيسة نفسها، فبقيت أسوار المدن الضخمة شاهدة على ازدهارها في العصور السابقة، بينما انكمشت مساحة الرقعة المسكونة داخلها، الى حد ان نصف الموصل كان حتى أوائل العصر العثماني، خرائب خالية من السكان، اما بغداد فقد كانت معاناتها تتناسب مع اهميتها الكبيرة فقد وصفت في هذه الحقبة بانها مجموعة من الازقة الضيقة، والبيوت المتهدمة وخربت معظم جوامعها التي استحال لونها الى السواد، وان ما بقي منها فيما عدا السوق لا يعدو أن يكون شبيها بالصحراء .

ولم تكن البصرة أحسن حالا فقد أدت أعمال العنف والتدمير التي تعرضت لها المدينة ابان القرنين الرابع عشر والخامس عشر، واهمال العناية بأنهارها العديدة، الى احاطة مياه المستنقعات بها وانتشار الأمراض فيها وخاصة وباء الطاعون فتركها أهلها تدريجيا ميسين وجوههم شطر نواحي(شط العرب) فأندرست بذلك معالم المدينة القديمة تماما.

وعلى الرغم من أن القرن السابع عشر كان بالنسبة الى ما سبقه من قرون، يعد عهد استقرار نسبي وثبات في نظم الحكم الا ان الضعف الشديد الذي كانت تعانيه السلطة المركزية العثمانية في العراق وغياب حكومات محلية قوية في مدن الرئيسة، لم يغير من أوضاع المدن الع ا رقية كثي ا ر، بل يمكن القول أن هذا القرن استمرار للحقب السابقة فيما يتعلق بعمارة مدن العراق، ونموها، ماعدا ان العثمانيين اهتموا في هذا القرن بتحصين المدن والعناية بم ا رفقها العسكرية من أب ا رج وخنادق،

تحسبا من غزو ايراني مرتقب في كل حين، فكان ذلك المظهر العمراني الوحيد الذي شهدته مدن العراق منذ اول العصر العثماني، وحتى سيطرة المماليك على مقاليد الحكم ونهوض الأسر المحلية فيه.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة العاشرة باللغة العربية: عهد المماليك والاسر الحاكمة

اسم المحاضرة العاشرة باللغة الإنكليزية : The era of the Mamluks and the ruling families

عهد المماليك والاسر الحاكمة

شهد العراق، منذ منتصف القرن الثامن عشر، وحتى منتصف القرن التالي تكون عدد من الحكومات المحلية في مدنه الرئيسة، شأن معظم ولايات الدولة العثمانية عامة، والولايات العربية منها بخاصة . فقد ادى ضع السلطة المركزية، والانحسار الفعلي للوجود العثماني المباشر عن اقاليمها العديدة، الى قيام سلطات محلية قوية تتسكن من ملء الفراغ الناجم عن ذلك الانحسار، فظهرت في أقاليم عربية مختلفة، حكومات محلية نسقت بدرجات متفاوتة، بين استقلالها الاداري والعسكري الفعلي، وبين وجودها ضمن السيادة العثمانية الرسمية، مثل آل العظم في دمشق، وآل القرمانلي في طرابلس الغرب ..وحكومة علي بك الكبير في مصر.

وكانت الولايات العراقية قد شهدت، منذ مطلع القرن السابع عشر محاولات متعددة لقوى محلية مختلفة استهدفت تأسيس حكومات وراثية، وكانت أبرز هذه المحاولات في النصف الأول من القرن الثامن عشر حين استطاعت قوى محلية، بعضها جلب من الخارج تحت ضغط ظروف معينة، ونشأت أجيال منه في العراق فاستعرق، وهم المماليك الذين تولوا السلطة في بغداد والبصرة، والبعض الآخر من أسر عراقية صميمة كالجليليين والعباسيين والبابانين الذين تولوا حكم مناطق مهمة أخرى من العراق، أن ساهموا جميعا، في تغيير خصائص الحكم العثماني في البلاد تغييراً واضحا على نحو مميز عهدهم عن سائر عهود السيطرة العثمانية، واسبغ عليه خصائص سياسية واجتماعية جديدة.

وللمماليك، في تاريخ هذه الحقبة، دور بارز، نظراً لقيام سلطتهم في بغداد وهي مركز الثقل السياسي والحضاري في الع ا رق منذ العصر الاسلامي، وشمول نفوذهم البصرة، ثغر العراق ومنفذ تجارته، فضلا عن ممارستهم توجيه الأوضاع السياسية في انحاء البلاد الاخرى.

ارتقاء المماليك السلطة :

يرقى منشأ حكم المماليك إلى منتصف القرن الثامن عشر ، حين حصل مملوك لحسن باشا والي بغداد، يدعى(سليمان آغا)على حريته من الوالي التالي احمد باشا بن حسن باشا أثر خدماته الجليلة في الدفاع عن بغداد ضد الغزو الايراني سنة ١١٤٥ هـ /١٧٣٢ م، وكافأه بتزويجه من ابنته الكبرى

(عادلة خانم)، وغدا كتخدا(نائبا له ومساعدا)سنين عديدة، ثم عهد اليه أخيراً بولاية البصرة سنة ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦ م.

اثبت سليمان آغا خلال المدة التي مارس فيها وظائفه، كفاءة وقدرة في ميداني الحرب والسلم واستطاع أن يتسلم السلطة في العراق ١٧٤٩ م بعد فشل ثلاثة ولاة عثمانيين تولوا السلطة في اعقاب وفاة أحمد باشا سنة ١٧٤٧ م. ويظهر تسلم سليمان آغا عجز السلطة العثمانية في اسطنبول عن فرض سيطرتها المباشرة حتى اصبحت امام أمر واقع تقر فيه بسلطة رئيس المماليك سليمان آغا.

والواقع أن نشأة العديد من رؤساء المماليك في بغداد وعلاقاتهم بالفئات المتنفذة بالمجتمع ساعد على تولي المماليك الحكم.بتسلم سليمان آغا السلطة بصورة رسمية أخذت الدولة العثمانية تراقب الأوضاع في العراق عن كثب .واتجهت سياستها الى محاولة ابعاد المماليك عن الاحتفاظ بالسلطة، قدر ما تسمح به الظروف، لذلك ما أن توفي سليمان آغا سنة ١١٧٥هـ/ ١٧٦١ م حتى سارعت بترشيح والي من جانبها(سعدالدين باشا والي الرقة)، لتأكيد كونها صاحبة القرار في هذا الشأن، ولكن هذا القرار العثماني لم يكن له وزن ازاء قوة المماليك ونفوذهم، ولذلك فأن صنع القرار النهائي ظل يعتمد على الشخص الذي يتفق عليه المماليك وغيرهم من ذوي النفوذ في بغداد ومن هنا فان تعيين المملوك (علي آغا)ليكون واليا على بغداد جاء بعد ان رجح وضعه على ستة مماليك منافسين، ولم يكن امام السلطان سوى اقرار ذلك.

وقد اصبحت عملية صنع القرار هذه ظاهرة تاريخية في عهد المماليك، فأثر مقتل علي باشا المتهم بموالأة ايران اندلعت ثورة تزعمها المملوك(عمر آغا)واعيان بغداد بعد بضعة أشهر من اعتلائه الحكم، وجمع عمر اغا العلماء ونظموا مضبطة رشحوه فيها ليكون واليا على بغداد، فأقر السلطان هذا الترشيح بعد أن حالت التطورات السريعة دون اعطائه الفرصة المناسبة للبت في موضوع تعيين والي غيره.

ولم يكن تعاقب المماليك على السلطة ليثني الدولة العثمانية عن محاولاتها الرامية إلى استعادة سيطرتها المباشرة، ولذا فانه ما آن ختمت فترة العشر سنوات التي حكم فيها عمر باشا بالغزو الايراني للعراق، انتهزت الدولة العثمانية الفرصة لإقصائه والتخلص من هيمنة المماليك على الحكم، حيث بعثت بقواتها الى بغداد بحجة التصدي للقوات الايرانية تلبية لطلب من عمر باشا، غير أن أوامر

القيادة العثمانية الى قائد الحملة(مصطفى الأسبيناقجي)كانت صريحة وهي تقضي بتوليه ولاية بغداد وتصفية نفوذ المماليك وهذا ما حدث بالفعل سنة ١١٨٩ هـ /١٧٧٥ م غير أن تطور الأحداث وتأزم الوضع الداخلي أثبت من جديد عقم الاجراءات العثمانية، فقد كانت سقطت في نهاية الأمر بأيدي الايرانيين .

كما أن تحركا عسكريا مملوكيا كان قد اندلع في وسط العراق هدفه اسقاط الوالي العثماني الجديد .ولم يجد السلطان بدا من عزل مصطفى الأسبيناقجي بعد ثمانية أشهر فقط وتعيين وال جديد هو(عبدي باشا)كاجراء سياسي لتهدئة الاوضاع، غير أن المماليك استمروا في تحركهم تأكيدا لرفضهم القطعي في التخلي عن السلطة لغيرهم .ولذا فان عبدي باشا لم يمكث في السلطة سوى سبعة عشر يوما، حيث اضطر للتنازل الى قائد الحركة المملوكية عبدالله آغا فأذعن السلطان للأمر واصدر فرمانه بإسناد ولاية بغداد الى هذا المملوك سنة ١١٩١ هـ /١٧٧٦ م.

وتميزت الحقبة ١١٨٩ – ١٢٤٧ – هـ/ ١٨٣١ – ١٧٧٥ م، بتعاقب ولاة مماليك على السلطة في بغداد، وظهور دور ملحوظ للقوى الاوربية في اسناد ترشيح احد الاغوات المماليك لولاية بغداد ممن يجدون في تعيينه ما يحقق لهم المزيد من المصالح في الع ا رق الامر الذي أضاف عاملا جديدا في ابقاء السلطة بيد المماليك وترسيخ السيطرة العثمانية غير المباشرة، فكان تعيين سليمان باشا الكبير سنة ١١٩٤ هـ /١٧٨٠ م بدعم كل من المقيم البريطاني في البصرة والسفير البريطاني في العاصمة اسطنبول .كما جاء تعيين خلفه علي باشا سنة ١٨٠٢ بتدخل من المقيم البريطاني في بغداد بينما وصل سليمان باشا الملقب بالصغير الى الحكم سنة١٨٠٨ بإسناد من قبل الفرنسيين حيث مارس السفير الفرنسي في اسطنبول دوراً كبيراً في هذا الشأن.

المماليك طبقة اجتماعية سياسية متنفذة :

ظل المماليك خلال سنوات الستينات والسبعينات من القرن الثامن عشر يشكلون فئات صغيرة استخدمت بصورة رئيسة كسرايا عسكرية، ولم يظهر لها دور اجتماعي كبير، غير انه بمجيء سليمان باشا الكبير سنة ١٧٨٠ تكاثرت اعدادهم حتى اصبحوا يشكلون طبقة اجتماعية متميزة في المجتمع البغدادي لها محلاتها الخاصة بها، كما ازدادت مساهمتهم في الحياة العامة.

وتعد المصادر عهد سليمان الكبير أوج قوة المماليك، حيث أعاد تنظيم تشكيلاتهم العسكرية، وكون فرقة خاصة قوامها الف مملوك اعتمد عليها في تثبيت نفوذه خارج العاصمة، واسند الوظائف السياسية والادارية والمالية المهمة اليهم، ضمن خطة استهدفت ابعاد الع ا رقيين عن هذه الوظائف ، وقد استمر ذلك حتى نهاية حكمهم.

ان هذا الوضع الاجتماعي السياسي الذي فرضه المماليك لم يحظ برضى المجتمع البغدادي، فلم يكن مرضيا عند وجهاء بغداد ان يشاهدوا الأغوات الكرج يستأثرون بالمناصب الكبيرة والمزارع المغلة، فاعلن بعضهم تذمره .وفي سنة ١٢١٠ هـ /١٧٨٣ م قاد(سليمان الشاوي)رئيس عشائر العبيد الذي كان يتولى منصب(باب العرب)، ثورة هزت كيان المماليك وكادت ان تقوضه.

محاولات العثمانيين لإقصاء المماليك :

ان اخفاق الدولة العثمانية في تعيين ولاة من قبلها في العراق دفع الباب العالي الى اعتماد اسلوب جديد لضرب حكم المماليك من الداخل، وذلك بالتنسيق مع الطامعين بمنصب الباشوية من جهة والقوى السياسية المحلية من جهة اخرى .وقد برز هذا الاتجاه في عهد سليمان باشا الصغير (١٢٢٣ – ١٢٢٥ هـ /١٨٠٨– ١٨١٠ م)الذي تجاوز في سياسته حدود من سبقه من ولاة المماليك، فقد الغى العديد من الضرائب والرسوم التي كانت سارية في الدولة العثمانية، وحاول التحكم في تعيين ولاة الموصل، بغية فرض سيطرته المباشرة عليها كما أنه تجاوز حدود ولايته بالتدخل المسلح في أ ا رضي تابعة لولاية ديار بكر، ثم توقف عن الأتاوة السنوية للباب العالي.

ثم أن سليمان باشا الصغير عمل على تحديد نشاط المقيم البريطاني في بغداد، وحاول تحدي نفوذ البريطانيين في العراق ، وبذلك اتبع سياسة تناقض سياسة الدولة العثمانية التي كانت آنذاك على العلاقات الودية مع بريطانيا. اعتبرت الدولة العثمانية سلوك الوالي المملوكي محاولة عملية من جانبه للاستقلال التام عنها، وكان السلطان(محمود الثاني)قد عزم على انهاء الحكم غير المباشر في الولايات، فقرر العمل على اقصاء المماليك نهائيا عن الحكم حتى وان تطلب ذلك استخدام القوة العسكرية .وا رسل في ١٢٢٥ هـ /١٨١٠ م(حالت محمد سعيد)، الذي عرف بمقدرته السياسية في هذا المجال، وزوده بفرمان ترك فيه مكان اسم الوالي شاغراً ليملأه حالت باسم من سيتمكن من تنصيبه بدلا من سليمان باشا الصغير .ويبدو أن الوالي ادرك هدف المبعوث السلطاني الذي حذره من

مغبة الاستمرار في سياسته، فطلب اليه مغادرة بغداد .واتصل المبعوث بوالي الموصل محمود باشا الجليلي، ووالي السليمانية عبد الرحمن باشا البابانى واطلعهما على المهمة المكلف بها وما يجب اتخاذه من عمل عسكري لتنفيذ أمر السلطان . كما عمل في الوقت نفسه وهو في الموصل على الاتصال بعدد من المماليك الذين عزلهم سليمان الصغير ممن كانوا ناقمين عليه.

ثم تقدمت نحو بغداد قوات عسكرية تقدر بخمسة عشر الفا .وعند اقترابها من المدينة، أعلنت الانكشارية التي اتصل بقادتها المبعوث لعثماني تمردها على الوالي المملوكي الذي لم يستسلم، وتمكنت قواته من استرداد القلعة التي استولوا عليها .ثم وقعت معركة عنيفة في رمضان ١٢٢٥ هـ / تشرين الأول ١٨١٠ م، اسفرت عن اندحار المماليك ومقتل الوالي.

بعد أن تحققت المرحلة الاولى من الخطة، برزت مشكلة من سيتولى السلطة ويبدو أن المبعوث كان يرغب بإناطتها الى اغا الانكشارية باعتبار ان ذلك يعني عودة الحكم العثماني المباشر .وفي الوقت نفسه أبدى عبدالرحمن البابانى الذي كان طامعا بولاية بغداد رغبته بتولي السلطة، وتعهد بان يزيد المبلغ الذي تبعثه بغداد الى خمسة اضعاف .غير أن الباب العالي استشار حالت افندي الذي بعث بتقرير الى اسطنبول لم يحبذ فيه اعهاد ولاية بغداد للباشا البابانى مقراً بان المماليك وان كانوا مصدر ازعاج للدولة وترغب في التخلص منهم الا أنهم لم يلتجئوا يوما إلى دولة اجنبية.

فلما علم بذلك عبدالرحمن البابانى أعلن أسناده لاحد المماليك ممن كان لاجئا لديه، فاضطر المبعوث، الى القبول بتعيينه بمنصب نائب الوالي، ولكن في الوقت نفسه أخذ يخطط لاطاحته . فعرض الأمر على قائد قوات الموصل أحمد الجليلي الذي رفض تنفيذ الخطة بالرغم من أن المبعوث قد وعده بباشوية بغداد.

ويبدو ان احمد استكبر خطورة العملية تقدي ا ر منه لقوة المماليك، فما كان من المبعوث الا أن أ وعز لرئيس الانكشارية بالتحرك واستلام السلطة .وقد عمد هذا قبل اعلان حركته إلى تحريض السكان لاخراج القوات البابانية من بغداد، ثم اعقب ذلك بالقيام بحركة فاشلة تمكن المماليك من احبالها فاضطر المبعوث الى ان يملأ فرمانا باسم المملوك عبد الله آغا، وبذلك اخفق الباب العالي من جديد في ابعاد المماليك عن الحكم.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الحادية عشر باللغة العربية: الأسر الحاكمة في العراق

اسم المحاضرة الحادية عشر باللغة الإنكليزية : The ruling families in Iraq

الأسر الحاكمة في العراق :

امتد حكم المماليك، المباشر الى ولاية شهرزور وولاية البصرة ومنطقة ماردين، فضلا عن بغداد نفسها، وبذلك فقد كانت سلطتهم تشمل معظم انحاء العراق الحالي، وجزءا من الجزيرة .كما انهم مارسوا اشرافا غير مباشر على مناطق اخرى، اهمها أمارة بهدينان التي يشمل حكمها العمادية وزاخو وعقرة، وكانت هذه الأمارة تحكمها أسرة عباسية و ا رثية تنتمي نسباً الى أحد احفاد الخليفة المستعصم العباسي، يدعي(بهاء الدين)فنسبت اليه، وعرفت بالبهدينائية .وبعد أن كان الاشراف على شؤون الامارة يأتي مباشرة من الدولة العثمانية المركزية، تولى ولاة بغداد هذه المهمة منذ مفتتح القرن الثامن عشر، فأصبحت ولاية بغداد هي المسؤولة عن اقرار تولي امراء هذه الأسرة الحكم، وشبيه بهذا الوضع ما كانت عليه الامارة البابانية في مناطق كوي وحرير وقلاجولان، فقد تولى ولاة المماليك مهمة الاشراف على شؤون هذه الأمارة الو ا رثية، وتدخلوا في تعيين أمرائها وعزلهم .

أما ولاية الموصل فقد ظلت تحتفظ بحكم خاص يتولاه ولاة ينتمون إلى الأسرة الجليلية العربية منذ أن تولى اول ولاتهم اسماعيل باشا الجليلي الحكم سنة ١١٣٩ هـ /١٧٢٩ م .ولقد ادى نجاح الوالي الشجاع الحاج حسين باشا الجليلي في الدفاع عن المدينة والاستبسال في المقاومة ضد الحصار الذي فرضه نادر شاه عليها سنة ١١٥٦ هـ /١٧٤٣ م الى تعزيز مكانة هذه الأسرة وزيادة شعبيتها، بل وارتفاع شأنها لدى الدولة المركزية نفسها، فعهدت الى الحاج حسين باشا الجليلي ولايات مهمة عديدة، كانت تعاني من ضغط ايراني توسعي، او من اضطرابات داخلية، هي البصرة، ثم ادنه في جنوب الأناضول، ثم قارص في شرقيه، وكوتاهية في غربيه وسيواس ثم حلب وكان ابنه محمد أمين باشا الجليلي أحد أبرز القادة العسكريين الذين تولوا أمر الدفاع عن المدن العثمانية أمام الروس في اوربا الشرقية سنة ١١٨٣هـ /١٧٦٩م، وتولى عبدالفتاح باشا الجليلي دوراً مهما في الساحل السوري، حين شارك في التصدي لقوات علي بك الكبير سنة ١١٨٥هـ ١٧٧١ /م، وتولى ولاية ط ا ربلس اضافة إلى ولاية الموصل .

وكان حكم محمد باشا الجليلي الطويل ١٢٠٤ – ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦ – ١٧٨٩ م يتميز بالاستقرار

السياسي وبتحسن الحياة الاقتصادية والاجتماعية، اشاد به عدد من الرحالة مروا بالمنطقة آنذاك ، فذكر اوليفييه الذي مر بالموصل سنة ١٧٩٤ انه سمع تجار المدينة وسكانها يثنون مراراً على الباشا، ويحمدون له حسن ادارته، والشرطة التي شكلها في كل انحاء ولايته، كما وجدهم معجبين بنزاهته، ونزاهة موظفيه، وراضين كل الرضا عن الهدوء الشامل والعناية بحماية التجارة، وتوفير المواد الغذائية .وكان حرس هذا الوالي على ما بذكره – اوليفييه يهتم(بالمحافظة على النظام وحماية الضعفاء وضبط ذوي النفوذ اكثر من اظهار فخفخة لا تحتاج اليها .)

وبهذا أصبحت الموصل محطاً للتجار ومركز للنشاط التجاري، واتسعت الصناعات، وتضاعفت المحصولات الزراعية، وازداد عدد السكان كثيراً، ورأى الشعب الرفاه فذاق فوائد الحياة الخالية من التحريض والاضطراب، أما الباشا فكان قويا في مركزه ومعضداً بحب الشعب.

وكانت(فرامين)تولية الجليلين في الحكم تصدر من الدولة العثمانية المركزية، الا ان أثر وساطة ولاة المماليك في اختيار المرشحين ازداد تتدريجياً وبخاصة في عهد والي بغداد الشهير داود باشا ١٢٣٢– ١٢٤٧هـ/ ١٨١٧– ١٨٣١ م) ورغم احتدام حدة التنافس الاوربي على التغلغل في شؤون الولايات العراقية، الا ان الولاة الجليليين وقفوا في وجه أية محاولة من هذا النوع، قلم تنشأ في الموصل، في عهدهم، أية قنصليات اجنبية في الوقت الذي أنشئت فيه قنصليات في بغداد والبصرة منذ فت ا رت مبكرة، ولم يأبهوا لمحا ولات المقيم البريطاني في بغداد لاثارة النفرة بينهم وبين والي بغداد بهدف تحقيق مزيد من التغلغل مؤكدين في ذلك أن قدرة العراقيين على تجاوز الخلافات الجانبية عند احتدام الخطر المهدد لوحدة التراب العراقي نفسه.

الانتفاضات القبلية :

ترتبط هذه الظاهرة بواقع القوى العشائرية التي كانت تمثل مركز ثقل كبير في المجتمع العراقي .وهي على امتداد الحقبة العثمانية شكلت تهديدا كبيراً للسلطة بحكم رفضها قبول الخضوع لها، والواقع أن ثورتها وان درجت العديد من المصادر على وصفها بالتمرد والعصيان، فانه يمكن اعتبارها الارهاصات للمحاولات التي استهدفت التخلص من السيطرة العثمانية. ولاشك فان السياسة العثمانية القائمة على فرض الضرائب ونهب الأموال باستمرار في وقت ظلت فيه الأوضاع الاجتماعية

والاقتصادية السيئة سمة عامة عادت الى مقاومة شديدة سيما وان السلطة كانت تلجأ في الاعم الاغلب الى استخدام القوة المسلحة لإكراه العشائر على الخضوع لها.

شهد عهد المماليك عددا من الانتفاضات العشائرية التي تميزت باتساعها وعمق تأثيرها ونتائجها . ولعل من أبرزها الثورة التي امتدت من الفرات الاوسط الى البصرة في عهد الوالي سليمان باشا الكبير حيث اندلعت في ١٢٠٢ هـ /١٧٨٧ م انتفاضة عربية عشائرية كبيرة تزعمها سليمان الشاوي من رؤساء العبيد وثويني العبدالله شيخ مشايخ المنتفق وحمد الحمود شيخ الخزاعل، واستهدفت القضاء على حكم المماليك وقد تمكن الثوار من فرض سيطرتهم على البصرة في السنة نفسها وتولى حكمها الشيخ ثويني العبد الله وهرب متسلمها المملوكي ابراهيم بك إلى مسقط، وظلت البصرة تحت حكم الشيوخ العرب بضعة أشهر (٦مايس – ٢٠ تشرين الأول)، ولم تخرج عن هذا الحكم الا بعد ان حشد المماليك قوات كبيرة لمواجهتها، ودارت معركة رهيبة في مكان يسمى(ام الحنطة)قرب البصرة انتهت بعودة الهيمنة المملوكية، وتقدم الرحالة البريطاني توماس هاول Thomas Howel وصفا لهذه المعركة، وكان قد أمضى في البصرة فترة ما بين ٢٣ شباط الى أول آذار ١٧٨٨ ، وفحص آثار معركة ٢٥ تشرين الاول وكتب عنها قائلا(:آنها لا بد كانت مذبحة رهيبة، فالميدان كله مغطى بعظام الرجال والخيول) .

والى جانب هذه الانتفاضات فان العديد من العشائر حاولت التأثير على بعض الولاة عن طريق اسناد هذا الوالي أو ذاك مما أتاح لهم دوراً في تحديد اتجاهات السلطة .وليس أدل على ذلك من الدور الذي مارسته عشائر المنتفق بقيادة الشيخ حمود الثامر في ايصال الملوك سعيد بك بن سليمان باشا الكبير الى السلطة سنة ١٢٣١ هـ/ ١٨١٦ م، والدفاع عنه ضد خصومه السياسيين حتى اصبحت سياسة هذا الوالي تخطط من قبلها.

التدخل الإيراني :

اما ظاهرة التدخل الإيراني التي لا ينفرد بها كما هو معروف عهد المماليك فحسب، فانها تمثلت بالتدخل في شؤون العراق الداخلية من جهة واستخدام القوة المسلحة من جهة اخرى .فقد دأبت ايران على خلق حالة من الفوضى والاضطراب في ولاية شهرزور المحاذية لها، وذلك عن طريق التدخل في شؤون الامارات الكردية، وتشجيع حركات التمرد، حتى أصبحت هذه المنطقة مسرحا للقوات

الايرانية التي كانت توغل لإسناد هذا الامير أو ذاك .وكثيراً ما كانت تحاول ان تكون طرفا في تعيين الحكام لهذه الامارات وتغري البعض باللجوء اليها لتدعمه بعد ذلك بالقوة المسلحة، وقد حفل عصر المماليك بأمثلة عديدة من هذا القبيل .ولعل من أبرزها ما حدث سنة ١٢٢٠ هـ /١٨٠٥ م حين اغرت ايران الأمير عبدالرحمن الباباني الذي كان يتولى حكم مقاطعات بابان وكوى وحرير بالتمرد على حكومة بغداد ثم اخذت تتوسط له حين شددت قوات بغداد الخناق عليه واضطر إلى الفرار نحو الاراضي الايرانية، حيث خصصت له ولأتباعه مقراً في(سقز)بالقرب من كرمنشاه، ووصل الأمر أن أرسل الشاه فتح علي القاجاري مبعوثا الى والي بغداد لطلب العفو عن عبد الرحمن الباباني واعادته إلى منصبه .ولما رفضت الوساطة الايرانية، اتخذت ايران موقفا سياسيا مضللا ، فقد تظاهرت امام مبعوث والي بغداد بحرصها على الحفاظ على العلاقات بين البلدين، وفي الوقت نفسه أتفقت سراً مع عبدالرحمن الباباني على احتلال المنطقة الكردية، ووضعت تحت تصرفه عددا القادة ومبلغا يقدر بخمسين الف تومان، فتقدم عبدالرحمن الباباني نحو السليمانية على رأس قوة كبيرة، وبغية تسهيل عملية تقدمه، عملت ايران على فتح جبهة باتجاه خانقين، وتقدمت قوات ايرانية كبيرة جدا يتولى قيادتها احد ابناء الشاه وهو محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه حتى وصلت القوات الى مدينة السعدية، واخذت تغير على القرى المجاورة لها وتنهب سكانها، وازاء هذا الموقف الخطير ولضمان انسحاب القوات الايرانية، اضطر والي بغداد الى الموافقة على تعيين عبدالرحمن الباباني متصرفا للسليمانية.

وبسبب موقف ايران هذا ظلت المنطقة الكردية مضطربة، فيما حاول ولاة بغداد اعادة الأمن والاستقرار اليها، واستخدموا القوة المسلحة لكبح جماح عبدالرحمن الباباني الذي استمر في سياسة التمرد ذاتها . ففي سنة ١٢٢٧ هـ/ ١٨١٢ م أصدر والي بغداد عبدالله باشا اوامره بفرض سلطة الحكومة على المنطقة، فهرب عبدالرحمن الباباني الى ايران، ونال العون منها بتدخل القوات الايرانية لمصلحته ثانية.

والواقع أن الأمراء البابانيين بسبب ضعف الدولة العثمانية كانوا في أغلب الأحيان يجدون أنفسهم عاجزين عن مواجهة السياسة الايرانية العدوانية التي عملت على اصطناع الأعوان من بين بعض الطامعين في حكم الامارة البابانية للتهديد بتطويح الأمير الباباني الشرعي .ولعل شكوى محمود

الباباني الذي تولى حكم الامارة البابانية بعد وفاة ابيه عبد الرحمن الباباني من تدخلات ايران في امارته وما ترتب عنها من خراب وتدمير دليل على ما ذهبنا اليه.

ولم تقتصر السياسة الايرانية على الابعاد المحدودة المذكورة وانما اتخذت صورة أوسع لاسيما في عهد كريم خان الزند الذي غزا البصرة سنة ١١٨٩ هـ/ ١٧٧٥م وتمكن من احتلالها بعد حصار دام اكثر من عام ٧ نيسان ١٧٧٥– ١٥نيسان ١٧٧٦ وذلك ضمن سياسة توسعية تستهدف منطقة الخليج العربي باسرها وكان كريم خان الزند قد طلب من قائده بعد احتلال البصرة مخططا للبلاد الممتدة من هذه المدينة باتجاه مسقط وبذلك فانه اراد أن يتخذ من البصرة قاعدة لفتوحات اخرى في المنطقة. وقد واجه الاحتلال الايراني مقاومة عنيفة من قبل اهالي البصرة والعشائر العربية وانتهى على أثر هزيمة حلت بالقوات الإيرانية على يد عشائر المنتفق سنة ١١٩٣ هـ/ ١٧٧٩ م.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة العربية: التغلغل الاوربي

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة الإنكليزية : European penetration

التغلغل الاوربي :

شهد العراق ابان عهد المماليك تزايد التغلغل الاوربي فيه ، ولا عجب في ذلك نظراً لأهميته الاستراتيجية في الخليج العربي وعلى طريق المواصلات الى الهند، وقد زادت المصالح الاستعمارية المتضاربة المتنافسة من خطورة طرق العراق منذ القرن الثامن عشر، وخاصة عندما نشبت حرب السنوات السبع (١٧٦٣ – ١٧٥٦) ، اذ استخدمت بريطانيا طريق العراق إلى الهند خلال هذه الحرب، ورفعت تمثيلها في البصرة الى درجة قنصلية، بعد ان كانت لها وكالة تجارية .كما أن فرنسا أولت العراق اهتماما خاصا، وجعلت وكالتها في البصرة تنشط للعمل التجاري والسياسي معا، وعينت لها هناك سنة ١٧٦٥ قنصلا يتولى القيام بهذه الأعمال وتنفيد ما يوضع له من الخطط، وتدفق العديد من الفرنسيين على العراق لجمع المعلومات عنه تحت غطاء السياحة والتنقيب.

وخلال فترة اشتداد التنافس البريطاني –الفرنسي بعد الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١)، أصبح العراق محوراً رئيساً في هذا التنافس، حيث قامت بريطانيا بتقوية تمثيلها الدبلوماسي فيه، فأنشأت مقيمية في بغداد سنة ١٧٩٨ ، تولى مهمتها هارفورد جونز Harford Jones الذي كانت مهمته ايصال الاخبار ما بين الهند وبريطانيا، ومراقبة نشاط الوكلاء الفرنسيين والعمل على تحريض باشوية بغداد على افساد مخططاتهم، كما عهد اليه بان يعد تقري ا ر مفصلا عن أحوال الع ا رق الاقتصادية والعسكرية.

وفي سنة ١٨٠٢ نجح السفير البريطاني في العاصمة العثمانية ايرل اوف الجين في الحصول على امر سلطاني بقبول هارفورد جونز قنصلا لبريطانيا في بغداد، مع تمتعه بالحصانة الدبلوماسية.

اما فرنسا فقد بذل سفيرها لدى الباب العالي هوراس سباستياني Horace Sebastiani جهودا كبيرة ايضا من اجل المصالح الفرنسية في العراق ومواجهة تصاعد النفوذ البريطاني، ومارس دوراً لا يقل أهمية الدور الذي مارسه السفير البريطاني فكان تعيين سليمان باشا الملقب بالصغير واليا على بغداد سنة ١٨٠٨ باقتراح منه .غير أن تطور الأحداث فيما بعد ادى الى ازدياد النفوذ الدبلوماسي

البريطاني في العراق وانحسار نظيره الفرنسي حيث وفرت معاهدة تلست Tilsit بين فرنسا وروسيا في (تموز ١٨٠٧) فرصة ذهبية لبريطانيا لتحقيق رجحان كفتها في العاصمة العثمانية التي لم تنظر بعين الارتياح للتقارب الفرنسي الروسي.

ومهما يكن من أمر فان الساحة العراقية شهدت في تلك الفترة، نشاطا سياسيا بريطانيا واسعا، فكان تعيين كلوديوس جيمس ريچ مقيما في بغداد سنة ١٨٠٨ من اهم(الأحجار)الاساسية في بناء النفوذ البريطاني، اذ كلف بأن يعمل على جعل العراق مجالا مفتوحا للتغلغل الاستعماري البريطاني، وان يقاوم نشاط فرنسا في هذه البلاد، ويراقب حركات رجالها وخططهم.

وقد اصبحت المقيمية البريطانية في بغداد تحت ادارة كلوديوس ريچ، ندوة لكبار الموظفين والوجهاء ولهواة الآثار والمنقبين عليها .ولتعزيز مركزه جعلت مقيمية البصرة سنة ١٨١٠ تحت اش ا رفه ايضا، وبعد سنتين أصبح لقبه(الوكيل السياسي في تركيا العربية.)

ولعل من أبرز ما حققه في مجال تعزيز النفوذ البريطاني في العراق التسوية التي توصل الى عقدها مع والي بغداد في ٢٥ كانون الثاني ١٨١٠ ، وتضمنت ست مواد، نصت على أن يتخلى الوالي عن حقه في اصدار الأوامر للمقيم وان لا يتدخل في شؤونه تحت أي أدعاء كان، ولا يعترض اطلاقا على الزيارات المتبادلة بينه وبين كبار موظفي حكومة بغداد، وبذلك تعالت مكانة المقيم البريطاني، وازداد مركزه قوة، حتى اصبح اكثر خطورة من أي ممثل أجنبي في بغداد.

أن النجاح الدبلوماسي الذي حققه ريج قد تعزز أكثر في السنوات التالية فيحدثنا الرحالة البريطاني جيمس بكنغهام الذي زار بغداد سنة ١٨١٩ ، على أن ريج يعتبر أقوى رجل في بغداد بعد الوالي.

وتقدم لنا كونستاس الكسندر في كتابها(بغداد في الايام الخوالي)صورة واضحة للنفوذ البريطاني في عهد الوالي سعيد باشا (١٨١٣ – ١٨١٧) ، فتقول أن المقيمية كانت مرك ا ز للجوء السياسي للذين تطاردهم السلطة في بغداد، كما وان ريج كان واقفاً على تفاصيل ما يجري في المقر الرسمي للوالي (السراي)، من خلال علاقاته مع بعض الموظفين.

غير أن مجيء حاكم قوي الى السلطة هو داود باشا (١٢٣٢ – ١٢٤٧ هـ/ ١٨١٧ – ١٨٣٢م)كان له تأثير على النشاط البريطاني في العراق فلم يتقبل ما وصل اليه كلوديوس ريج من نفوذ له خطورته على مستقبل البلاد، ولهذا توترت العلاقات بينهما وبلغت أوجها حينما أعلن داود باشا بأن(حكومة

بغداد لا تعترف بأية حقوق أوربية)، ولكن حكومة بومباي احتجت بشدة لدى الحكومة في اسطنبول وفي بغداد.

وفي سنة ١٨٢٣ عقدت اتفاقية مع داود باشا نظمت العلاقة بشكل تفصيلي وضمنت لبريطانيا النفوذ الأول في العراق ونصت على تعهد والي بغداد (بالالتزام بنصوص الامتيازات الأجنبية كما هي محددة في المعاهدات العثمانية والفرمانات السلطانية قديمها وحديثها.)

وقد اضطر داود باشا للإذعان للأمر الواقع، لأنه كان يواجه عدة مشاكل، منها نشاط البريطانيين، وتهديده بغزو ايراني نظراً لتوتر العلاقات، بالإضافة الى تعرضه لضغط سياسي من السلطة العثمانية المركزية، وقد سارت العلاقات البريطانية –العراقية من بعده بالشكل الذي حقق المصالح البريطانية في العراق .

مدن العراق كمراكز للأنشطة المدنية :

تضافرت جملة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، على جعل الحقبة التي حكم خلالها المماليك والأسر الحاكمة، عهد نمو وتطور للمدينة في العراق ، منها أن ازدياد اهمية الحكومات المحلية ومحاولاتها الدائبة لفرض سيادتها على الريف قد ادى الى ميل لدى السكان للتجمع حول الم ا ركز الحكومية الرسمية، كالقلاع والسرايات(دور الحكم)، والثكنات، نظراً لما تتمتع به تلك المراكز من نفوذ متزايد على مجريات الأحداث حولها، فكان ذلك سببا في نشوء عدد من المدن المهمة مثل الديوانية والسليمانية وكويسنجق، اما المناطق التي ظل فيها نفوذ القبائل قويا، فقد التف فيها السكان حول قلاع اسسها زعماء قبليون بارزون لغرض جمع الضرائب وحماية الارض، فتحولت تلك القلاع الى مراكز حضرية، متنوعة الانشطة مثل الكوت والسماوة والعمارة، ثم أن ازدياد التباين بين انتاج المدينة القائم على الصناعة والتجارة، وانتاج الريف المرتكز على الزراعة والرعي، أظهر الحاجة إلى وجود اسواق تباع فيها منتجات الريف والمدينة على حد سواء، فساعدت هذه الحاجة الاقتصادية الناشئة على ظهور بعض المدن داخل المناطق الزراعية وعلى اطراف البادية مثل سوق الشيوخ والزبير مثلا .

كما أن الاهتمام بتأمين الطرق وانشاء الخانات التجارية عليها، دفع فيما بعد إلى نشوء تجمعات حضرية مستقرة حول تلك الخانات، التي سرعان ما تحولت الى مدن صغيرة مثل الإسكندرية

والمحمودية وخان بني سعد واليوسفية وغيرها .فلما حل القرن التاسع عشر كان عدد المدن والقرى قد تضاعف م ا رت عدة، وتحول عدد من الخانات والقلاع والمضارب والاسواق الموسمية الى مدن نامية .ومثلما ا زد عدد المدن الجديدة ا زدت كثافة السكان في المدن السابقة وتضاعف سكانها، رغم كوارث الأوبئة الفتاكة التي كانت تودي بحياة نسب عالية منهم، بين حين وآخر، فبلغ سكان بغداد في منتصف القرن التاسع عشر نحو ١٥٠،٠٠٠ نسمة وهو يزيد على ضعفي ما كانت عليه قبل قرن من هذا التاريخ، كما طرأت زيادات ملموسة على سكان المدن الكبيرة الأخرى فبلغ عدد سكان الموصل نحو اربعين الفاً والبصرة بين اربعين وستين الفاً وأدى الاستقرار النسبي في تلك المدن، وما تمتعت به من استقلال ذاتي عن الإدارة المركزية العثمانية، الى نمو وظائفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مما أغلب عليها السمة المدنية، بعد أن كان الطابع العسكري هو الغالب في العهود السابقة .

ففي هذا العهد برزت(السرايات)كمقرات للحكم ومؤسساته بدلا من القلاع وتنافس الولاة في تزيين تلك المقرات الجديدة وانشاء الحدائق بعد أن كانوا لا يعرفون الا مقرات عسكرية كئيبة المنظر، فأشتهر (سراي)بغداد منذ أن أعاد بناءه والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ – ١٨٠٢ م)بسعته، ووجود عدة قصور فخمة فيه تشغلها دوائر الحكومة ومساكن بعض المماليك من الولاة السابقين كما أن فيه عددا من الحدائق الغناء التي ترويها قنوات خاصة .وكان سراي الموصل في الحقبة نفسها آية في الجمال، وكان الولاة الجليليون قد اتخذوه هم أيضا، مقرة للحكم بعد أن فقدت قلعة المدينة مهمتها تلك، وأقيمت قرب السراي بعض بيوتات الجاليات الأجنبية، ففي البصرة مثلا، جاور سرايها(وقد عرف بحوش الباشا) داران للقنصلين الانكليزي والفرنسي، بينما جاورها من النواحي الأخرى ثكنات عسكرية.

ومن المظاهر الحيوية التي اتسمت بها مدن العراق ابان عهد المماليك والأسر الحاكمة النشاط المتزايد للسوق، الذي كان غالبا ما يكون قريبا من منطقة سراي الحكم، وتتفرع منه عادة، مجموعة الأسواق المتخصصة في ضروب التجارة المختلفة، فتؤلف بمجموعها حيا تجاريا كبيراً .ونظراً لاكتظاظ هذه الأحياء بما يتصل بها من خانات للتجار ومقاه ومساجد ومدارس وباعة للكتب والرواقين، فقد تحولت لتكون مراكز لاستقطاب فئات عديدة من السكان فكانت كثافتهم تقل تدريجيا كلما ابتعدنا عنها الى انحاء المدينة الأخرى.

ولعوامل متعددة، منها محاولة الحكام التقرب من الشعب، وربما احساسهم بارتباطهم به اكثر من ارتباطهم بالدولة المركزية، وتنامي الروح القومية، وتعاظم تأثير(العلماء)، والمثقفين عموما، في الحياة العامة، فقد نشطت حركة تشييد الجوامع وتعمير المساجد والمشاهد القديمة دون أن يقتصر ذلك النشاط على مدينة أو فئة معينة، ففي بغداد مثلا بلغ عدد هذه المنشآت في آخر عهد المماليك نحو مائة مسجد بينها عشرون مسجدا كبي ا ر ذا مأذنة في حين بلغ عددها في الموصل، في التاريخ نفسه، زهاء ثلاثمائة مسجد وثمانية عشر جامعا .وانشئت في هذا العهد جوامع كبيرة .ذات مظاهر باذخة لم تكن تعرفها مدن العراق منذ عهد طويل، وتسابق الولاة والسراة في والتعمير، فقد عمر سليمان باشا الكبير عدد من تلك المنشآت ببغداد منها جامع الفضل، وجامع القبلانية، وجامع سوق الغزل .

وضرب داود باشا رقما قياسيا في هذا المجال فمن اعماله التي ما تزال شامخة في بغداد جامع الحيدرخانة، وجامع الآصفية، وجامع الأزبك اضافة الى المساجد الأخرى وكانت هذه المنشآت خير مجال لأبداع الفنان العراقي كشف فيها عن رهافة ذوقه وحسن اختياره لعناصره الفنية .ويمكن القول بأن اسلوبا متميزاً في فن العمارة قد اخذ يظهر بقوة في مباني هذا العهد المختلفة يمكن وصفه بأنه يمثل مدرسة عراقية متكاملة الملامح.

ونتيجة لأزدياد كثافة السكان في المدينة العراقية ابان هذا العهد فقد نمت ظاهرة تجزؤ محلاتها (احيائها)الى محلات أصغر مساحة، وكانت المحلة الوحدة الأساسية في المدينة تظهر ملامح التضامن الاجتماعي، والعصبية المدنية وتتألف المحلة الواحدة من طريق عريض نسبيا وازقة ضيقة تابعة له تعرف(بالعقود)، وفي نهاية الشارع بوابة قوية تغلق كل ليلة .وفيها مسجد ومقهى خاص بسكانها، وسقايات تأخذ مياهها عن طريق قنوات مرفوعة أو بواسطة السقائين.

التنظيمات الحرفية :

تزايد النشاط الحرفي في المدن العراقية خلال القرن الثامن عشر، وتطورت العلاقات الانتاجية بين الحرفيين من جهة، والتجار والفلاحين من جهة أخرى، مما ادى الى تعاظم التنظيمات الحرفية المعروفة(بالأصناف)باعتبارها تنظيمات اقتصادية اجتماعية أخلاقية تحمي أصحاب كل حرفة من التعدي وتضمن مستوى مقبولا للحرفة، وتنظم الصلة بين السلطة وارباب الحرف.

وكان من الطبيعي أن تضم هذه(الأصناف)أكثر الجماعات نشاطا وانتاجا في المجتمع العراقي آنذاك، وأن تؤدي دورها في تماسك ذلك المجتمع الى حد كبير، ولقد تحولت مشيخة الصنف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الى منصب وراثي محض، تتولاه في كل حرفة أسرة معينة مبرزة في صنفها، وان يكن ذلك يستلزم موافقة اساتذة الصنف(الاسطوات)، ويتولى الشيخ مسؤوليات عديدة، فهو يشرف على شؤون حرفييه الادارية والمالية، ويحل منازعاتهم، ويرأس هيئة ادارة الصنف، ويرعى المراسم والحفلات، ويمثل مصالح الصنف لدى السلطات.

ازدادت الرقابة على الأصناف ابان العصر العثماني، فخضعت الى اشراف موحد فجعلت تحت مشيخة عامة واحدة، وفرضت عليها الضرائب بالضمان او الالتزام، فكان على الأصناف أن تؤدي متضامنة أنواعا من الضرائب الحرفية الى الملتزمين الذين يفوضون حق استيفائها بالمزايدة السنوية، وتدخل في هذه الطريقة من الالتزام دور الصناعة العامة التي يملكها الصنف برمته، كالمصابغ ودور النسيج والمخابز والممالح والاسواق .وقد أدى ذلك الوضع الى ان يمسي شيخ الصنف مسؤولا أحيانا أمام الضامن أو الملتزم مباشرة وليس امام الحكومة.

بيد أن ذلك لم يمنع من ممارسة(الأصناف)أدواراً متنوعة في التأثير على مواقف السلطة العامة، ولا شك في أن من العوامل الرئيسة لازدياد أهمية تلك الممارسة، انضمام معظم الحرفيين الى فرق (اورطات)الجيش الانكشاري المرابطة في المدن الع ا رقية، واداؤهم من خلال تلك الفرق، نشاطات هامة ذات طابع سياسي، وربما زادوا من قوتهم بالتحالف مع قوى محلية أخرى، معلنين احتجاجا عاما، فيغلقون الاسواق ويتقلدون السلاح، وكثيراً ما كان لمساهماتهم العامة هذه أثر في احراج موقف حاكم أو وال، بل واسقاطه أحيانا، مما يضطر السلطة العثمانية الى ابداله بوال آخر يلقى تعيينه قبولا اكبر من قبل سكان الولاية أو الفئات المؤثرة فيها.

على أن من المهم أن نذكر أن الأصناف لم تستطع أن تبلغ في فعاليتها السياسية حدا يمكنها من السيطرة الدائمة على السلطة السياسية في المدن، فقد بقيت طبقة التجار، بما لها من تحكم في تصدير السلع المنتجة وتوريد مواد التصنيع الخام، تمارس سيطرتها على السوق المحلية، ومن ثم على وضع الأصناف الاقتصادي نفسه.

وعلى الرغم من الطابع الديني الصوفي الذي كان يسود الاصناف ابان هذا العهد، ويكسبها أخلاقيتها وقيمها الخاصة، فإنها ضمت مختلف الطوائف الدينية دونما تمييز اداري يذكر، معبرة في ذلك عن مجتمع المدينة وتماسكه.

ويمكن القول أن طبقة التجار بقيت تشكل حائلا فعالا يقف بين الأصناف والسلطة السياسية ويمنعها من نيل امتيازات رئيسة كالتي نالتها مثيلاتها في اوربا.

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الثالثة عشر باللغة العربية: الريف العراقي

اسم المحاضرة الثالثة عشر باللغة الإنكليزية : Iraqi countryside

الريف العراقي :

عرف الريف العراقي نوعين من الحياة الاجتماعية لسكانه، الاولي حياة القبائل القائمة على احت ا رم القيم البدوية القديمة، من حرب ورعي واحتقار للزراعة وما يتعلق بها من مهن مستقرة، والثانية حياة الفلاحين الذين يمتهنون فلاحة الأرض وتربية الدواجن وصيد السمك وغيرها، وعلى هذا النحو حافظت القبائل العراقية على مقوماتها كطبقة محاربة متميزة، على الرغم من وجودها في مناطق ريفية زراعية.

وابقاء منها على هذا الوضع، فقد استمرت ظاهرة تكتلها في اتحادات او مشيخات كبرى، كان أبرزها ابان عهد المماليك، اتحاد قبائل بني لام في حوضي دجلة الاسفل واتحاد قبائل المنتفق في حوض الفرات الاسفل .وعلى الرغم من محاولات المماليك العديدة لتوطين بعض القبائل القوية وربطها بالإنتاج الزراعي لأراضيها فأن تلك القبائل ظلت حتى نهاية عهد المماليك، متمسكة بروحها القبلية البدوية غير المستقرة، وبينما كانت ترتبط بسكان البلاد، وخاصة الفلاحين بعلاقة زراعية محددة، فأنها كانت ترتبط بسلطات المدن بعلاقة مالية خاصة، فهي تشبه أن تكون ملتزمة للأرض أمام تلك السلطات فتقوم القبائل بجباية قد تبلغ نصف الحاصل او تزيد، باعتبارها مالكة الأرض وحامية لها وتدفع من ريع ارضها هذه نسبة معينة إلى السلطات الحكومية لقاء تمتعها بحق استغلال الأرض واذا ما اضفنا الى هذه العلاقة جانبها العسكري، الذي يقوم على أساس حق الولاية باستدعاء قوات القبائل للمشاركة في أعمالها العسكرية، فان الوضع القانوني للقبيلة يكاد لا يختلف بوجه عام عن وضع الأقطاع العسكري العثماني المعروف ب(التيمار) .

وتتفاوت نسبة ما تدفعه القبائل الى السلطات الحكومية من مال لقاء تمتعها بحق استغلال ارضها، ولم يكن لهذا المال اسم قانوني محدد، فهو تارة(خراج)وتارة(جزية)ويدعى أحيانا فيئا أو غنيمة اذا ما صاحب تحصيله شيء من القوة العسكرية، وكان من المألوف في حكومة المماليك أن تعفى بعض القبائل مما عليها من أموال، مقابل قيامها بأعمال مهمة تكلفها بها الحكومة، مثل المحافظة على الطريق، وحراسة القوافل، والمساهمة في الأعمال العسكرية التي يقوم بها الولاة .

وتعتبر هذه القبائل، أو اتحادات القبائل اعلى الطبقات الاجتماعية في الريف الع ا رقي، ففي كل اتحاد قبلي كانت ثمة مشيخة قوية تتألف من شيوخ القبائل الأساسية المكونة للاتحاد وي أ رس الجميع(شيخ المشايخ)أو(الأمير)وهو عادة من اسرة معينة ذات صفات قيادية خاصة .وللشيخ سلطات واسعة في قبائله تمتد لتشمل تحديد مضاربها وايام غزوها وانسحابها، وعقد الأحلاف والمعاهدات، الا ان هذه السلطة كانت محدودة من حيث الواقع بموافقة ممثلي القبائل التي ي أ رسها، وكان على الشيخ احترام ارادة اولئك الرؤساء والنزول عندها أذا ما لزم الأمر .

بل ان من المحتمل أن يصدر مثل هذا المجلس قرار ضد الشيخ القائم ولقد استطاع ولاة المماليك في بغداد أن يتدخلوا لأول مرة في عزل شيوخ القبائل الكبرى او تعيينهم بعد أن كان هذا أمراً خاصا بالقبيلة ذاتها، على ان من الملاحظ أن هذا التعيين كان محصوراً بأسرة الشيخ نفسه وتلى القبائل الاخرى او اتحادات القبائل العسكرية الرعوية طبقة الفلاحين، وهم لا يختلفون عنها في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية الا بأنهم يمتهنون الزراعة، فهم اكثر ارتباطا بالأرض وانتاجها واخبار هذه الطبقة غير واضحة في المراجع التاريخية المعاصرة مثل سابقتها لأنها بطبيعة استقرارها، بعيدة عن المساهمة في الحياة السياسية والعسكرية في البلاد ولهذا تسميهم تلك الم ا رجع باسم(اهل القرى)أو (الزراع)أو(أهل العرق) ومن الملاحظ ان معظم أولئك الفلاحين كان ينتمي الى قبائل، مرت في عهد سابق بمرحلة القبائل الرعوية الكبرى الا انها نتيجة لتفككها وتعرضها لضغط القبائل الاخرى حديثة النزوح اضطرت إلى امتهان الفلاحة لقاء التمتع بالحماية اللازمة.

وفي الواقع أن كثرة الهج ا رت القبلية وتلاحقها وتفرق العشائر في انحاء شتى من الريف العراقي أدى الى ان تتحول تلك العشائر بسرعة الى مرحلة الانتاج الزراعي المستقر، فتصبح بذلك من عشائر العراق الريفية الزراعية .وتدل مشاهدات الرحالين لقرى اولئك الفلاحين وتجمعاتهم السكنية على الحالة الاجتماعية والصحية المتردية التي كانوا يحيونها .

ففي جنوبي العراق ووسطه كانت اغلب القرى مشيدة بجريد النخل، ومغطاة بالحصير او من القصب، ونادرا ما تنبني قرية من مادة صلبة كالحجا رة أو غيرها، أما القرى الكبيرة، فكانت جميعها مشيدة بالطين المجفف بالشمس، ورغم انها احسن حالا نسبيا من سابقتها الا انها متواضعة المظهر الى

أبعد الحدود، ولم يكن لهذه القرى اي نوع من الادارة المنظمة، لذا كانت بيوتها قذرة مليئة بالحش ا رت ومعرضة لانتشار الأوبئة المختلفة والأم ا رض، حتى يكفي أن ينتشر أي وباء ليقضي على قرى عديدة بكاملها دون أن يبقى من أهلها أحداً، وفي معظم الأحيان كان النازحون الفقراء يعانون الأهوال من جيرانهم البدو العتاة، فضلا عن معاناتهم ما يحيط بهم من حيوانات مفترسة، كالذئاب والنمور وبنات آوى.

الحياة الاقتصادية :

أن اضطراب اوضاع العراق السياسية وغزو الايرانيين له مرات عديدة، كان له اثره الكبير في الحياة الاقتصادية، وعلى الرغم من ذلك ظلت الزراعة المحور الذي تقوم عليه اقتصاديات العراق في عهد المماليك .وقد بذلت بعض الجهود في هذا المجال .حيث تم حفر نهر الهندية ، كما جرى احياء بعض الأنهار المندرسة كنهر عيسى الواقع في غرب بغداد بظاهر الكرخ، ونهر النيل الذي كان قد احتفره الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد استخدم داود باشا في كريه خمسة آلاف عامل اتموا حفر مأخذه من الفرات سنة ١٨٢٦ . كما اهتم باستخدام آلات الري، وتم انجاز مشروع لرفع المياه من دجلة .وفي مجال استغلال خامات الع ا رق الزراعية أسست مصانع للمنسوجات القطنية والجوخ.

وكان للموقع الجغرافي الذي يتمتع به العراق كطريق بين الشرق والغرب، اثره الكبير في جعله مركزاً تجاريا رئيسا، ولذلك كانت بغداد سوقا شرقية كبيرة، وقد وصفها الرحالة بارسونز الذي زارها سنة ١٧٧٥ بقوله(:انها السوق الكبير لمنتجات الهند وايران والقسطنطينية وحلب ودمشق، وباختصار انها اكبر مخزن في الشرق.)

اما البصرة فان تجارتها كانت واسعة، وبلغت تقدما كبيراً في الربع الأول من القرن التاسع عشر بحيث اصبح يصلها ست سفن تحمل العلم البريطاني بدلا من سفينة واحدة، عدا السفن الأخرى التي تحمل الاعلام العربية، وقد استقبلت البصرة في سنة ١٨١٥ خمس عشرة سفينة اتت من البنغال وبومباي، معدل حمولة الواحدة منها ما بين ثلاثمائة واربعمائة طن .وكانت السفن تأتي بأنسجة الحرير من البنغال هي والأقمشة الأخرى والفلفل والادوية والرز والسكر والاصباغ، كما تجلب من سورات(أحد موانئ الهند)كل انواع المصنوعات والشالات والالبسة الصينية والورق الصيني، والاصباغ والقهوة

والصمغ والمواد الأخرى بالإضافة الى ما تنتجه الهند من مواد أخرى كالرصاص والحديد والقصدير والفضة والفولاذ الى جانب الصادرات الأوربية.

وكان تصدير المواد غير الضرورية للاستهلاك المحلي من بغداد يصل الى معدل ٣٠٠ الف قرش سنويا .وتأتي الخيول العربية في مقدمة الصادرات العراقية الى الهند .وقد أصدر الباب العالي أمراً منع بموجبه تصدير الخيول من أي جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية، وذلك لأهمية الخيول في الحرب، ولكن لما كان تصدير هذه الخيول الى الهند يدر ارباحا كبيرة على متسلمي البصرة وبالتالي على والي بغداد فقد استمرت هذه التجارة نشطة حتى تم في سنة ١٨١٦ تصدير حوالي ألف وخمسمائة رأس منها الى بومباي ومدراس وكلكتا، كان يذهب حوالي نصف هذا العدد الى هذه المدن بينما يذهب ثله الى البنغال والباقي منه الى مدراس.

وتشكل صادرات البصرة من التمر جزءا هاما من صادرات العراق ، وكان يصدر الى كرمنشاه وهمدان وشمالي أيران ومسقط والهند .أما الصادرات العراقية الاخرى فأنها تشمل بصورة خاصة الرز والحنطة والشعير وهي تصدر الى مسقط وبعض مناطق الخليج العربي.

وكانت الرسوم الكمركية على التجا رة تشكل موردا ماليا مهما لباشوية بغداد، وكان يجري فرض الرسوم على الاستيرادات من الهند طبقا لتعريفة كمركية مقدارها ثلاثة في المائة من قيمة البضاعة وهذه النسبة تنظم حسب السعر الذي تباع به البضاعة فعلا في البصرة، ولذلك لن يكون الرسم الكمركي مستحق الدفع الا بعد أن يتم البيع فعلا.

ويتمتع الرعايا البريطانيون بأمتياز تفريغ بضائعهم في مخزن الوكالة أو في أي مكان آخر من دون أن يذهبوا بها الى دائرة الكمرك التي يتحتم على السلع الاخرى نقلها اليها، كما كان يسمح للزوارق الملحقة بالسفن البريطانية أن تمر بالنهر الى داخل المدينة وتعود فيه دون أن يجري تفتيشها، مع أن هذه الامتيازات كانت غير مطبقة على السفن العربية التي ترفع العلم البريطاني .وكان للبريطانيين أيضا امتياز تجاري هام وهو أنه في حالة افلاس أحد التجار الوطنيين يصبح ما لدائنيه من البريطانيين بمقتضى فرمان صادر من قبل مستحق السداد بكامله قبل توزيع ما يتبقى على دائنيه من أهل البلاد.

أما الضرائب على التجارة التي يقوم بها الأهالي والدول التي لم تكن موقعة على معاهدات مع الباب العالي فكانت ٧,٥% وهذه هي القيمة الرسمية للضريبة. وكانت الضريبة تقدر حسب البالة أو الصندوق أو حسب الوزن، وهذه تسمى سقط أو حسب الأطوال وهذه تسمى صاغ وكان يستقطع قرش عن كل بالة كرسم .وكانت هناك بعض البضائع المعفاة من الضريبة مثل النقد والذهب والفضة .وقد قدرت الرسوم على التجارة في بغداد بمليون قرش وفي البصرة كانت تقدر بمليون ونصف المليون.

والى جانب هذه الضرائب الكمركية كانت هناك في عهد المماليك انواع أخرى من الضرائب وهي على النحو التالي:

١- الجزية على الرأس من أهل الملل غير المسلمة .

٢ -العشر(وفي بعض المصادر الخمس)على الحاصلات الز ا رعية .

٣ -زكاة الغنم .

٤-رسوم المكوس.

٥-ضريبة المرور على البضائع .

٦- ضريبة التمغة على بعض الحرف وعلى أصناف معينة من البضائع والمصنوعات المحلية.

٧ - ضريبة المسقفات على الدور والحوانيت والخانات.

٨ - ضريبة(السالیان)وهي ضريبة سنوية تؤخذ من الفلاحين على الأراضي التي يحرثونها.

وهناك ضرائب كان يفرضها المتنفذون المتصرفين والقائمقامين والأغوات وشيوخ العشائر والمختارين في القرى والأرياف، ومنها ضرائب المرور على القوافل ويسمونها الأتاوة أو(الخاوة.) بلغ دخل بغداد سنة ١٨٢٨ أربعة وعشرين الف كيس، ونظراً لبعد العراق عن مركز السلطنة فقد سمح الباب العالي للباشوات بسك العملة محليا، وكان في بغداد دار لسك العملة التي تستعمل في بغداد ولا يسمح بأنتشارها خارج الولاية.

الحركة الثقافية :

انتعشت الثقافة وما يرتبط بها من حركة فكرية في مدن العراق ابان القرن الثامن عشر وكانت من اهم مظاهر النشاط الحضري المت ا زيد فيها وعنوان الشخصية قومية متميزة لم تكن جذورها قد انقطعت قط، وكان من ابرز ملامح هذه الظاهرة المهمة ان زادت اهمية(العلماء)والمثقفين كطبقة فعالة مؤثرة

على نحو لم تشهده لعهود السابقة من قبل، وأضحت المدن العراقية مركز جذب شديد لفئات عديدة من القرى والأرياف المجاورة لم يجد النابهون منها الا العلم مجالا للارتقاء الاجتماعي، وكانت تلك الفئات تجد في اوقاف المدارس والمساجد المخصصة لطلبة العلم والفقراء خير معين للحياة في المجتمعات الحضرية الجديدة، فارتقى عدد منهم الى مناصب علمية رفيعة ومؤثرة وكان منهم المدرسون في المدارس والوعاظ والخطباء في الجوامع الكبيرة، ونال بعضهم حظوة لدى الفئات الحاكمة من المماليك أو من الأسر المحلية الأخرى، فكان منهم ندماء الولاة ومجالسوهم وشعراؤهم ومدرسوهم، بل نال بعضهم مناصب ادارية مهمة كالكتخدا ورئيس الكتاب وغير ذلك، وكان معظمهم يتمتع برعاية رسمية تتمثل بمنحه الجوائز والاعطيات والمكافآت.

وكان طبيعيا أن يؤدي ارتفاع شأن المثقفين وقربهم من الأوساط الحاكمة ومساهمة بعضهم في ادارة شؤون بلدهم الى ارتفاع شأن الثقافة ذاتها، مما ولد نوعا من الاحساس بالقضايا العامة آنذاك ودفع بتيار فكري قوي لان يشق طريقه متميزاً عن المفاهيم العثمانية التقليدية التي كانت تسود العصر، وكان هذا التيار ذا طابع عربي واضح تمثل في مئات من القصائد والمقاطع الشعرية لشعراء عراقيين نابهين امثال مصطفى الغلامي وحسن العشاري وعبدالرحمن السويدي وعبد الحميد الشاوي وعبد الغني ال جميل تغنوا بها بأمجاد العرب وفضلهم وشكوا فيها من سوء أحوالهم العامة وما آل اليه امر بني قومهم من تأخر وجهل .

وادى تعاظم المد الثقافي الجديد الى(تثقف)الحاكمين انفسهم ومحاولة بعضهم أن يكون لهم نصيب في الحياة الأدبية والفكرية في عهدهم، فكان من ولاة المماليك ببغداد من كان اديبا متفهما لآداب العربية متذوقا لفنونها بل ان منهم من كان شاعراً متقنا وعالما ماهراً مثل داود باشا آخر ولاتهم .وكان من الولاة الجليليين في الموصل ادباء وشعراء ومؤرخون لهم نتاجات متنوعة في حقول اهتماماتهم أمثال محمد باشا ونعمان باشا وسعد الله باشا وحسن باشا ومحمد امين باشا وغيرهم.

وكان لأولئك الولاة اسهام مباشر في تشجيع حركة التعريب بتكليفهم عددا من أدباء عصرهم بنقل مؤلفات معينة من اللغتين الفارسية والتركية الى لغة الضاد وتشجيعهم التأليف بها في مختلف العلوم ومنحهم الجوائز على ذلك .وليس أدل على مدى ما استعادته هذه اللغة من منزلة أن كثي ا ر من

الوثائق الرسمية مثل الوقفيات الشرعية والعقود اصبحت تكتب في هذا العهد بالعربية اللغة التركية الرسمية، بل أن مراسلات سياسية على جانب كبير من الاهمية كتبت بهذه اللغة فالمراسلات المتبادلة بين نادر شاه وولاة العراق سنة ١٧٤٣ كانت كلها بالعربية وليست بالتركية لغة الدولة والسلطان، او بالفارسية لغة نادر شاه نفسه.

وكان من نتائج هذه العوامل ان نمت حركة التأليف نموا سريعا، فبرز من العراقيين من ألف في علوم القرآن والحديث ومصطلحه والفقه والتصوف واللغة والبلاغة والأدب، ونشطت حركة التدوين التاريخي على يد مؤرخين جادين، بل ألف بعضهم في علوم محضة كالطب والفلك والرياضيات، كتبا ورسائل اودعوها خلاصة تجاربهم وملاحظاتهم، وعمد نفر من أولئك المؤلفين الى الترجمة من اللاتينية والفرنسية مباشرة الى العربية فاسهموا بذلك في رفد لغتهم بعدد كبير المصطلحات العلمية، ولم تعدم فنون كالموسيقى والغناء من مجودين لها القوا او عربوا الرسائل بشأنها .

كما حفل العصر ايضا بعدد من الفنانين التشكيليين الماهرين، خطاطين ومذهبين ومزوقي كتب، فضلا عن المهندسين والبنائين الذين تركوا آثارهم فيما خلفوه من مساجد فخمة تمثل في عمارتها مدرسة فنية ع ا رقية متميزة، ولقد أشاد الرحالة ميرزا ابو طالب خان(الذي زار الموصل عام ١٢١٣ هـ /١٧٩٩ م)بالمستوى الثقافي الرفيع الذي كان عليه موظفو الولاية وسكانها، فقال في كتاب رحلته (كان هؤلاء ناسا مثقفين، خاصة وذوي اخلاق محبوبة وتفكير واسع ومنذ مغادرتي باريس لم الاق رجالا ذوي أذهان نيرة مثلهم)، ويقارن بين ثقافتهم وثقافة الموظفين الذين رآهم في العاصمة العثمانية ويقول انه لو كان لوزراء السلطان عشر براعتهم فقط ، لما واجهت الدولة العثمانية ما تواجه من مصائب.

بادر ولاة واعيان وتجار الى تشييد المؤسسات التعليمية، كالمدارس ودور القرآن ودور الحديث ووقفوا الاوقاف الكثيرة عليها لإدامة الإنفاق على شؤونها وصرف الرواتب المجزية لمدرسيها وطلبتها، واهتم عدد منهم بوقف الكتب على تلك المؤسسات، وكان ابرزها في بغداد المدرسة السليمانية والمدرسة الداودية والمدرسة العمرية ومدرسة الفضل ومدرسة القبلانية، واشهرهما في الموصل المدرسة الأمينية والمدرسة الرابعية والمدرسة العثمانية والمدرسة الحسنية، وفي البصرة المدرسة الخليلية .وكان من النادر أن يخلو مسجد من مدرسة موقوفة، أو على الأقل من جهة للتعليم، أو خزانة للكتب.

وكانت مناهج تلك المدارس لم تخرج عما كان يعرف بالعلوم النقلية وهي علوم تقليدية في محتواها واساليبها يدور معظمها حول قضايا الدين واللغة وبوسائل قديمة تعتمد الحفظ والتلقين اسسا لها، ومع هذا فان من المؤكد ان هذه المدارس ساهمت إلى حد كبير في اشاعة الاهتمام بالعربية وعلومها، تحفظت بذلك لغة الشعب القومية وسط ظروف تلك العهود السياسية و ا زدت من عدد المتعلمين المهتمين بتراث الامة الديني واللغوي، مما كان له اثر في ارساء قواعد ثقافية عامة ستجد نموا أوضح في الحقبة اللاحقة.

المصادر

١ – كاظم حبيب ، لمحات من عراق القرن العشرين .

٢ – ستيفن هيمسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث .